مادة (الذوق) ومقاماتها في القرآن الكريم: دراسة بيانية

تأليف

الأستاذ الدكتور

عبدالعزيز بن صالح العمَّار

عضو هيئة التدريس في كلية اللغة العربية في الرياض

المقدمة:

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وكماله، حمداً له وشكرا أن هدانا للإيمان، وأنزل علينا القرآن، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام، ومن اهتدى بهديه، واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد:

فلا تخفى أهمية الدراسات القرآنية، كما لا تخفى بلاغة القرآن وفصاحته، وأنه الذروة العليا من البيان، كما أن سبب إعجازه، وقصورَ القوم عن معارضته، أو الإتيانَ بمثله ما تميز به من الأساليب البيانية، والأسرار البلاغية، فقد أعجز البلغاء، وحير الفصحاء بحسن نظمه، وقوة أسلوبه، فهذه الدراسة وأمثالها إسهام في بيان بلاغة القرآن الكريم، وبيان ذلك الإعجاز، ومن هنا جاء التوجه إلى الكتاب العزيز في الدراسات القرآنية .

جاء اختياري لموضوع " **مادة (الذوق) ومقاماتها في القرآن الكريم: دراسة بيانية** "؛ لأهمية هذا الموضوع في الدراسات البلاغية التطبيقية في القرآن الكريم؛ نظراً إلى تعدد الآيات التي وردت فيها لفظة (الذوق) بصيغها المتنوعة، وفي مقامات متعددة، انفرد القرآن ببديع نظمه في استعمالها في تلك المقامات، موظفا تلك الصيغ والمفردات لكلمة (الذوق) في تحقيق الغرض الذي سيقت له. حصرتُ في هذا الكتاب الآيات التي وردت فيها مادة (الذوق)، مع بيان صيغ هذه الألفاظ، ومقام ورود كل لفظة من ألفاظ مادة الذوق، ثم التوجه إلى هذه الآيات بالدراسة والبحث، مع إمعان النظر فيها، وطول تأملها، والوقوف معها، لبيان أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، للدلالة على بلاغة مادة "الذوق" في المقام الذي وردت، فيه، وأن فيها أسراراً ودقائق، ما كانت لتكون لو خلا النظم القرآني من هذه اللفظة.

أتبعتُ في هذا الكتاب المنهج التحليلي للآيات التي وردت فيها مادة (الذوق)، من خلال النظر فيها، ودراستها دراسة متأملة متأنية في ضوء نظرية النظم، مضمنا ذلك بأقوال علماء التفسير والبلاغة.

وبعد: فهذا ما سعيتُ إلى تحقيقه، والوصول إليه، فإن تمَّ ذلك على الوجه الذي أرجوه فقد حققتُ مرادي، وأصبتُ مبتغاي، وذلك تفضل منه – سبحانه – وتكرم، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بذلتُ وحاولتُ، وإن لم أبلغ الكمال فحسبي – أيضاً – أني سعيتُ له واجتهدتُ، والله وحده هو الذي يتولى أمرنا، ويوفقنا إلى السداد والصواب، والحمد لله رب العالمين .

للتواصل مع المؤلف
aa2008ss@gmail.com

المبحث الأول: بين يدي آيات الذوق في القرآن الكريم

المطلب الأول: تعريف الذوق لغة واصطلاحاً:

تدل مادة " الذوق" –كما يذكر ابن فارس – على أصل واحد، وهو اختيار الشيء؛ لغرض التطعم[١]، يدل على ذلك قول العرب: ﴿ذقتُ الطعام، وتذوقته شيئاً بعد شيء، وهو مرُّ المذاق، وما ذقتُ اليوم ذواقاً، ولا تفرقوا إلا عن ذواق ﴾.[٢]

ومادة (الذوق) من باب: قال يقول، ذاقه، ذواقاً، ومذاقاً، ومذاقة[٣]، والمذاق طعم الشيء في اللسان.[٤]

هذه هي دلالات لفظة (الذوق) في أصل استعمالها، وفي الاصطلاح: ﴿قوة منبثة في العصب المفروش على جرم اللسان، تُدرك بها الطعوم، بمخالطة الرطوبة اللعابية في الفم بالمطعوم، ووصولها إلى العصب ﴾.[٥]

هذا هو المعنى الحقيقي للفظة (الذوق)، وحين الرجوع إلى معجمات اللغة فإنها لا تمدنا بأكثر من هذه المعاني الحقيقية للفظة (الذوق)؛ وذلك أن جلَّ استعمالها في اللغة العربية في المعاني المجازية، ومن هنا جاء شح المعاني الحقيقية للفظة (الذوق) .

أشار كثير من علماء اللغة والبيان إلى هذه الحقيقة، ومن ذلك: ابن فارس، يقول – بعد أن بيّن المعنى الحقيقي للفظة الذوق–: ﴿ثم يُشتق منه مجازاً فيُقال: ذقتُ ما عند فلان أي اختبرته ﴾[٦]، وكذلك قول أبي البقاء الكفوي، يقول: ﴿ثم كثر حتى جُعل عبارة عن كل تجربة، يُقال: ذقتُ فلاناً ﴾[٧]، وممن أشار إلى هذه الحقيقة أبو حيان الأندلسي، فذكر أنه كثر استعمال لفظة (الذوق) في كلام العرب بمعنى الإصابة[٨]، ومن الإشارات –كذلك – قول ابن قتيبة، يقول: ﴿وأصل الذوق: بالفم، ثم يُستعار فيُوضع

---

(١) يُنظر: معجم مقاييس اللغة: مادة:ذوق.

(٢) أساس البلاغة: مادة: ذوق.

(٣) يُنظر: مختار الصحاح: مادة: ذوق.

(٤) يُنظر: لسان العرب: مادة: ذوق.

(٥) كتاب:التعريفات: ١٠٧ .

(٦) معجم مقاييس اللغة: مادة: ذوق.

(٧) الكليات: ٤٦٢ .

(٨) يُنظر: البحر المحيط: ١٥٦/٤ .

موضع الابتلاء والاختبار »[1]، وممن أشار إلى هذه الحقيقة محمد الطاهر ابن عاشور، يقول: « ولذلك اشتهر إطلاق الذوق على إدراك الآلام والعذاب، وشهرة هذه الاستعارة قاربت الحقيقة ».[2]

ومن هنا فإن أكثر ما يُذكر في معنى لفظة (الذوق) في المعجمات اللغوية معانٍ مجازية، وأكثر هذه المعاني تدور حول الاختبار، ومعرفة الشيء حق المعرفة، ومن ذلك قول العرب: ذقتُ القوس، إذا نظر الرامي منها مقدار إعطائها، ومدى قوتها[3]، يدل على هذا المعنى – أيضاً –: قولهم: ذقْ قوسي؛ لتعرف لينها من شدتها[4]، وعلى هذا المعنى جاء قول الشماخ: [5]

فذاق فأعطته من اللين جانبا كفى ولها أن تُغرِقَ السهمَ حاجزُ

كما جاء هذا المعنى –كذلك – مع الرمح، ومنه قول ابن مقبل: [6]

أو كاهتزاز رديني تذاوقه أيدي الكماة فزادوا متنه لينا

ومنه قولهم: « ذقتُ الناسَ، وأكلتهم ووزنتهم، وكلتهم فما استطبت طعومهم، ولا استرجحتُ حلومهم »[7]، يدل على هذا المعنى –كذلك – قولهم: « وهو أمر مستذاق، أي مُجرَّب معلوم »[8]، ويقولون: – أيضاً –: ناظر فلاناً، وذق ما عنده، ومرادهم: تعرف عليه واختبره، واركب الفرس وذقه ومرادهم تعرف عليها[9]، وكذلك قولهم: تذاوق التجار السلعة؛ إذا خبروها، ونظروا فيها نظرة تدقيق وتمحيص.[10]

ومن المعاني المجازية –كذلك – للفظة (الذوق): قولهم « هو حسن الذوق للشعر؛ إذا كان مطبوعاً عليه »[11]، ومنه قولهم: « لا يستذيق لي الشعر إلا في فلان ».[12]

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ١٦٤ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٥٠/٧ .

(٣) يُنظر: معجم أساس البلاغة: مادة: ذوق.

(٤) يُنظر: أساس البلاغة: مادة: ذوق.

(٥) يُنظر: ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ١٩٠ .

(٦) يُنظر: ديوان تميم بن أبي مقبل: ٢٣٢ .

(٧) أساس البلاغة: مادة: ذوق.

(٨) مختار الصحاح: مادة: ذوق

(٩) يُنظر: تأويل مشكل القرآن: ١٦٤ .

(١٠) يُنظر: أساس البلاغة: مادة: ذوق.

(١١) المصدر السابق: مادة: ذوق.

(١٢) المصدر السابق: مادة: ذوق.

ذكر ابن خلدون السرَّ في إطلاق لفظة (الذوق) على مَن كان مطبوعاً على الشعر، يقول:« واستُعير لهذه المِلَكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطُلح عليه أهل صناعة البيان، وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم، لكن لما كان محل هذه المِلَكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استُعير له اسمه ». [1]

وممن أشار إلى المعنى المجازي للفظة (الذوق) ابن جرير الطبري، يقول: « العرب تقول للرجل ينال السلاح فيقتل به: قد ذاق فلانٌ فلاناً الموت، وأذاقه بأسه، وأصل ذلك: من ذوق الطعام، وهو يطعمه، ثم استُعمل في كل ما وصل إليه الرجل لذة وحلاوة، أو مرارة ومكروه وألم ». [2]

ومن خلال ما تقدم يتبين أن أكثر معاني لفظة (الذوق) معانٍ مجازية، فهذه هي المعاني التي جرت بها ألسنة العرب الأقحاح شعراً ونثراً، وبهذا نزل القرآن الكريم، فلا غرو في هذا، فقد نزل بلسان عربي مبين، ولذا فأكثر استخدام القرآن الكريم للفظة (الذو) إنما هو في معانيها المجازية، فجاء استخدام القرآن الكريم للفظة (الذوق) امتدادا لاستخدام العرب لها، وقد تجلت بلاغة القرآن وإعجازه في توظيف هذه المعاني في تحقيق أغراض القرآن ومقاصده.

يدل على أن استخدام القرآن الكريم للفظة (الذوق) امتداد لاستخدام العرب لها شعرا ونثرا في المعاني المجازية: الواقعة التي وقعت بين ابن الأعرابي – وهو من علماء اللغة، وأئمة البيان – وبين ابن الراوندي الزنديق، حين حاول القدح في بلاغة القرآن الكريم، فذكر له قوله – تعالى – في سورة النحل﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾، فقال له: « هل يُذاق اللباس؟! فقال له ابن الأعرابي: لا بأس أيها النسناس، هب أن محمداً ما كان نبياً، أما كان عربياً »[3]، فقد قدح جهلاً ببلاغة هذا الأسلوب، وبهذا الاستعمال، وسيأتي الحديث عن بلاغة هذه الآية، وجمال هذا الاستعمال، ولكني أردتُ من إيراد هذه الحادثة هنا: الإشارة إلى أن القرآن الكريم استخدم لفظة (الذوق) كما استخدمها العرب في المعاني المجازية.

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٣٤٩ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٣٦/٦

(٣) فتح القدير: ٢٢/٣

المطلب الثاني: آيات الذوق في القرآن الكريم، وصيغها:

المرجع الرئيس في حصر هذه الآيات، وبيان صيغها، هو كتاب: (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) لمحمد فؤاد عبدالباقي، فقد رجعتُ إليه في هذا الحصر، ولذا فأنا أذكر الآيات هنا كما ذكرها، مقسمة على صيغ لفظة الذوق الواردة في القرآن الكريم[1]، وقد آثرتُ ذكر آيات لفظة (الذوق) منطلقاً صيغ هذه اللفظة ، لأني في المبحث القادم سأذكر المقامات التي وردت فيها لفظة الذوق، فمن باب التنوع، وتعدد الفائدة.

١. لفظة " ذاقا " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –:﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأعراف: ٢٢] .

٢. لفظة " ذاقت " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –:﴿ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرٗا ﴾ [الطلاق: ٩] .

٣. لفظة " ذاقوا " وردت في القرآن الكريم ثلاث مرات، وذلك في قوله – تعالى –:﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [الحشر: ١٥] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [التغابن: ٥] .

٤. لفظة " تذوقوا " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –:﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل: ٩٤] .

٥. لفظة " يذوق " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾ [المائدة: ٩٥] .

٦. لفظة " يذوقوا " وردت في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ٥٦] .

---

(١) يُنظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٢٧٩ .

- وفي قوله – تعالى –:﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىٓ ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾ [ص: ٨] .

٧. لفظة " يذوقون " وردت في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان: ٥٦] .

- وفي قوله – تعالى –: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾[النبأ: ٢٤] .

٨. لفظة " فليذوقوه " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾[ص: ٥٧] .

٩. لفظة " ذق " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[الدخان: ٤٩] .

١٠. لفظة " ذوقوا "وردت في القرآن الكريم اثنتين وعشرين مرة، وذلك في قوله – تعالى –:﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٦]

- وفي قوله – تعالى –: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١] .

- وفي قوله – تعالى –: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[الأنعام: ٣٠] .

- وفي قوله – تعالى–: ﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٩] .

- وفي قوله – تعالى –: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[الأنفال: ٣٥] .

- وفي قوله – تعالى –: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[الأنفال: ٥٠] .

- وفي قوله – تعالى –: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[التوبة: ٣٥] .

- وفي قوله – تعالى –: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾[يونس: ٥٢] .

- وفي قوله – تعالى –: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٢٢] .

- وفي قولـــه – تعـــالى -: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٥] .

- وفي قولـه – تعـالى -: ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٤] . وقد وردت لفظة الذوق في هذه الآية مرتين بهذه الصيغة.

- وفي قولـــه – تعـــالى -: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[السجدة: ٢٠] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [سبأ: ٤٢] .

- وفي قولـه – تعـالى -: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[فاطر: ٣٧] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٢٤] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٤] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ ۖ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الذاريات: ١٤] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [القمر: ٣٧] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾[القمر: ٣٩] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٨] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٣٠] .

١١. لفظة " فذوقوه " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى -: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأنفال: ١٤] .

١٢. لفظة " أذاقها " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى -: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[النحل: ١٢] .

١٣. لفظة " أذاقهم " وردت في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[الروم: ٣٣] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٢٦] .

١٤. لفظة " أذقنا " وردت في القرآن الكريم في أربعة مواضع، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾[يونس: ٢١] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾[هود: ٩] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٨] .

١٥. لفظة " أذقناك " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[الإسراء: ٧٥] .

١٦. لفظة " أذقناه " وردت في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾[هود: ١٠] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت: ٥٠] .

١٧. لفظة " نذقه " وردت في القرآن الكريم ثلاث مرات، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الحج: ٢٥] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾[الفرقان: ١٩] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سبأ: ١٢] .

١٨. لفظة " فلنذيقن " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٧] .

١٩. لفظة " ولنذيقنهم " وردت في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[السجدة: ٢١] .

. وفي قوله – تعالى –: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[فصلت٥٠] .

٢٠. لفظة " نذيقه " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[الحج: ٩]

٢١. لفظة " نذيقهم " وردت في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾[يونس: ٧٠] .

. وفي قوله – تعالى –: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت: ١٦] .

٢٢. لفظة " يذيق " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥] .

٢٣. لفظة " ليذيقكم " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[الروم: ٤٦] .

٢٤. لفظة " ليذيقهم " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الروم: ٤١] .

٢٥. لفظة " ذائقة " وردت في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[آل عمران: ١٨٥] .

. وفي قوله – تعالى –: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٥] .

. وفي قوله – تعالى –: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[العنكبوت: ٥٧] .

٢٦. لفظة " ذائقوا " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾[الصافات: ٣٨] .

٢٧. لفظة " ذائقون " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾[الصافات: ٣١] .

المبحث الثاني: مقامات لفظة الذوق في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية:

بيان المراد بالمقام في الدرس البلاغي

مما يحسن بيانه في هذا المبحث بيان معنى لفظة (المقام) في الدرس البلاغي؛ إذ له صلة وثيقة في مضمون هذا الكتاب، بل إنه جزء من عنوانه، كما يتم تداول لفظة (المقام) كثيراً في البلاغة العربية، بل إنها جزء من التعريف الاصطلاحي للبلاغة، فهي –كما عرفها البلاغيون –: ﴿ مراعاة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ﴾[1]، والحال الذي ينبغي أن يأتي الكلام على مقتضاه هو: المقام.

ولم تكن لفظة (المقام) ودلالاتها الاصطلاحية محدثة لدى المتأخرين من علماء البلاغة والبيان، فلفظة (المقام) ودلالاتها معروفة من القدم في تأريخنا العربي والإسلامي، فقد وردت هذه اللفظة في الشعر والنثر بهذه الدلالة[2]، ومن الإشارات المتقدمة في ذلك:

قول الحطيئة يخاطب عمر بن الخطاب– رضي الله عنه – [3]:

تحنن عليَّ هداك المليك فإن لكل مقام مقالا

إذن عرف العرب مقولة (لكل مقام مقال)، كما وردت في كلامهم شعراً ونثراً، بل صارت مثلاً يتداولونها ويتناقلونها جيلاً بعد جيل، يدل على ذلك: ذكرُ الميداني لها في " مجمع الأمثال"، فذكر أن من أمثلة العرب قولهم: (لكل مقام مقال)، ثم بيَّن أن المراد بها: ﴿ أن لكل أمر أو فعل أو كلام موضعاً لا يُوضع في غيره ﴾. [4]

كما وردت لفظة (المقام) والمراد بها المعنى الاصطلاحي الذي يقصده البلاغيون في كتب الأدب والنقد قديماً، وثمة إشارات مهمة ومقولات عن ابن المقفع في التأكيد على أهمية المقام، والتشديد على مراعاته، والتقيد به في الكلام؛ ليكون بليغاً، ذكر ابن المقفع أن البلاغة درجات متفاوتة، وأنها اسم جامع لكثير من المعاني المندرجة تحتها، ثم ذكر علامتها، وأنها متحققة لمن يراعي المقامات المتعددة، ومن يعطي المقام حقه بما يقتضيه، يقول: ﴿ إذا أعطيتَ كل مقام حقه، وقمتَ بالذي يجب من سياسة ذلك المقام،

---

(١)الإيضاح: ١٩

(٢)يُنظر:معجم المصطلحات البلاغية: ٦٢٧ .

(٣)يُنظر: ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت: ٢٢٢ .

(٤) مجمع الأمثال: ١٢٦/٣ .

وأرضيتَ من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد، والعدو؛ فإنهما لا يرضهما شيء ».[1]

وللجاحظ إشارات متقدمة وقيمة في الحديث عن المقام، والأمر بمراعاته، وأنها من البلاغة في الصميم، بل هي البلاغة، أشار إلى هذا الأمر في مفتتح كتابه " البيان والتبين"، مبيناً أن «أول البلاغة: اجتماع آلة البلاغة »[2]، ثم ذكر علامة ذلك بقوله: «ألا يُكلِّم سيد الأَمَة بكلام الأَمَة، ولا الملوك بكلام السوقة ».[3]

ويؤكد هذه الحقيقة في موضع آخر، فيقول: «ومن عِلْم حَقِّ المعنى أن يكون الاسم له طِبقاً، وتلك الحال له وَفْقاً، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً، ولا مقصِّراً، ولا مشتركاً ».[4]

ومن حفاوة الجاحظ بأهمية المقام: ذكره لصحيفة بشر بن المعتمر، ومما جاء فيها: «والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال»[5]، ومما جاء فيها – أيضاً –: قوله: ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدام المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً؛ حتى يقسم أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ».[6]

كما أكد هذه القضية، وأعادها في كتابه الآخر " الحيوان"، فتحدث فيه عن المقام، والأمر بمراعاته، في مواضع متناثرة من الكتاب، في إشارات صريحة، وعبارات واضحة كل الوضوح في بيان أهمية المقام، والدعوة إلى مراعاته، بلغت به العناية بأمر المقام، والحفاوة به أن جعل لذلك عنواناً، وسمَّاه: " لكل مقام مقال"، ختمه بقوله: «وقد أصاب كل الصواب الذي قال: لكل مقام مقال ». [7]

---

(١) البيان والتبين: ١/١١٦ .

(٢) البيان والتبين: ١/٩٢ .

(٣) المصدر السابق: ١/٩٢ .

(٤) المصدر السابق: ١/٩٣ .

(٥) المصدر السابق: ١/١٣٦ .

(٦) المصدر السابق: ١/١٣٩ .

(٧) يُنظر: كتاب الحيوان: ٣/٤٣ .

كما أشار إلى أهمية المقام في موضع آخر، تحت عنوان: " تناسب الألفاظ مع الأغراض"، فبين المراد به، في قوله: « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء: فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال ». (١)

ولمزيد عنايته بهذا الموضوع وتأكيده، أشار إليه في موضع آخر، تحت عنوان: " اختيار الألفاظ، وصوغ المعاني"(٢)، فبعد أن ذكر أن من حق الألفاظ أن تُوضع في نصابها، وأن يُخاطب بها أهلها دون سواهم، ختم ذلك بقوله: « من الخطأ أن يَجلِب ألفاظ الأعراب، وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل، ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل ». (٣)

وممن أشار إلى المقام، وأهمية مراعاته، ومجيء الكلام على مقتضاه: أبو هلال العسكري، تناول عبارة بشر بن المعتمر السابقة، وهي قوله: « ألا يُكلَّم سيد الأَمَة بكلام الأَمَة، ولا الملوك بكلام السوقة »، فعلق عليها بقوله: « لأن ذلك جهل بالمقامات، وما يصلحُ في كلِّ واحدٍ منهما من الكلام، وأَحْسَنَ الذي قال: لكل مقام مقال ». (٤)

هذا شيء مما ذكره المتقدمون عن المقام، والإشارة إليه، والإشادة به، وأنه من البلاغة في الصميم، بل هو البلاغة بعينها، كما ظهرت الحفاوة بالمقام عند المتأخرين، وأظهروا مزيداً من العناية بها، والإشارة إليها، فهذا السكاكي، يعقد له في كتابه عنواناً، ويسميه: " لكل مقام مقال"، يذكر فيه أهميته، يقول فيه: « ولا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر، يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام على بناء الاستخبار، أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، وجميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقام غير مقتضى الآخر ». (٥)

---

(١) كتاب الحيوان: ٣٩/٣ .

(٢) يُنظر: المصدر السابق: ٣٦٧/٣ .

(٣) المصدر السابق: ٣٦٩/٣ .

(٤) الصناعتين: ٣٣ .

(٥) مفتاح العلوم: ١٦٨ .

ويؤكد في موضع آخر أنه بسبب مراعاة مقتضى الحال تفاوت الكلام، وظهرت بلاغته، وارتفع كلام عن كلام، يقول: ﴿ وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادقة الكلام لما يليق، وهو الذي نسميه مقتضى الحال، فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم، فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك، فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب مقتضى الحال ضعفاً وقوة، وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه، فحسن الكلام في تركه، وإن كان المقتضى في إثباته على وجه من الوجوه المذكورة، فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب ﴾.(١)

ويتجلى هذا الأمر وضوحاً وتأكيداً عند الخطيب القزويني، يكفي في الدلالة على ذلك أن جعل ذلك هي البلاغة بعينها، ونصَّ على ذلك في تعريف البلاغة، فعرَّفها بقوله: ﴿ مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ﴾(٢)، ثم يأخذ في بيان هذه الحقيقة وإيضاحها، فيذكر: ﴿ أن بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف؛ فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي ﴾. (٣)

وتبلغ حفاوة الخطيب القزويني بالمقام في إشارته إلى أن مراعاة مقتضى الحال، ومجيء الكلام وفق هذا المقتضى، أن هذا الأمر هو النظم الذي ذكره عبدالقاهر الجرجاني، ودعا إليه، يقول: ﴿ فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب، وهذا أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال، هو الذي يسميه الشيخ عبدالقاهر بالنظم، حيث يقول: النظم تآخي معاني النحو فيما بين الكلام، على حسب الأغراض التي يُصاغ لها الكلام ﴾. (٤)

---

(١) مفتاح العلوم: ١٦٩ .

(٢) الإيضاح: ١٩ .

(٣) المصدر السابق: ١٩ .

(٤) المصدر السابق: ١٩ .

وجاء شراح التلخيص فساروا على خطا القزويني في الإشارة إلى أهمية المقام، ومن الإشارات المهمة في ذلك: ما ذكره ابن يعقوب المغربي، فقد ذكر ﴿ أن المقام والحال شيء واحد، وكذا الاعتبار، ومقتضى الحال، وأنه لا فرق بين المقام والحال في الحقيقة ﴾. (١)

ويؤكد صاحب المطول هذا الأمر، مشيراً إلى تعدد المقامات، وضرورة مراعاتها، ومجيء الكلام وفق مقتضاها، يقول: ﴿ فعند تفاوت المقامات؛ تختلف مقتضيات الحال ضرورة، فإن الذكي يناسبه من الاعتبارات اللطيفة، والمعاني الدقيقة الخفية ما لا يناسب الغبي ﴾. (٢)

وقد ذكر الدكتور بسيوني عبدالفتاح فيود المراد بـ: الحال، الذي يذكره البلاغيون في تعريف البلاغة، يقول: ﴿ والمراد بالحال الأمر الداعي للمتكلم أن يعتبره في كلامه خصوصية ما، ومقتضى الحال: هو مجيء الكلام مشتملاً على تلك الخصوصية التي اقتضاها الحال، فمثلاً إذا كان هناك من ينكر قيام زيد، فهذا الإنكار حال يقتضي أن يؤكد المتكلم كلامه، فيقول: إن زيداً لقائم، ومجيء الكلام مؤكداً هو مطابقته لمقتضى الحال.

وإذا كان هناك إنسان عظيم، نبيه الشأن، جليل القدر، وأردتَ أن تتحدث عنه فإنك تقول: هذا هو الرجل، فعظم هذا الرجل، ونباهة شأنه، وجلالة قدره حال يقتضي تعريفه بالألف واللام، ومجيء الكلام معرفاً هو مطابقته لمقتضى الحال، وعلى العكس يُقال للحقير: أهذا رجل؟

فالحقارة حال، والتنكير مقتضاها، ومجيء الكلام منكراً هو مطابقته لمقتضى الحال، وهكذا يختلف الكلام تبعاً لاختلاف الأحوال، فمقام التألم أو الخوف يقتضي الإيجاز، إذ التألم تكفيه الكلمة، والخائف تغنيه الإشارة، ومقام الأنس والتلذذ يقتضي الإطناب؛ لأن الآنس يحتاج إلى الإسهاب، وإطالة القول، والبلاغة أن يأتي الكلام مطابقاً للحال التي يُلقى فيها ﴾. (٣)

---

(١) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح: ١٢٦/١ .

(٢) كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح: ٢٦ .

(٣) علم المعاني:٢٨ .

تعمدتُ في دراسة مادة (الذوق) في القرآن الكريم أن أجعل المقام هو الأصل الذي انطلقتُ منه في بيان الآيات المنتمية إلى هذا المقام في بيان أسرارها البلاغية، وقد تفرع عن المقام صيغ كل المادة، وأسرارها البلاغية، كما لا يخفى أهمية المقام، إذ البلاغة مرتبطة بمقامها، وإذا عُرف المقام عُرف كيف تتم مراعاته، فتكون الأساليب البلاغية وسيلة لتحقيق الغرض، بناء على تطلب المقام لها، ومن هنا كانت مقامات هذه المادة المنطلق في هذه الدراسة البيانية، بخلاف الصيغ، والدلالات البيانية، ولذا قسمت مباحث الكتاب على هذا الأساس.

المقام الأول: في قصة آدم – عليه الصلاة والسلام – مع الشيطان في الجنة:

وردت لفظة (الذوق) في هذا المقام مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله – تعالى – في سورة الأعـــراف: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾

والشاهد في هذه الآيات في قوله – تعالى–: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾، سبق هذا الشاهدَ قولُه: ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾، وقوله: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾، وهذه الأفعال كلها صادرة من الشيطان اللعين في إغوائه لآدم وزوجه – عليهما الصلاة والسلام –، ولذا جاء قوله:﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾ استجابة لتلك الغواية، وتلبية لتلك الأفعال الصادرة من الشيطان الرجيم.

وفي قوله: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ ﴾ تعبير بليغ في الدلالة على إيحاء الشيطان، وإغوائه لآدم وزوجه، والمعنى: أنه غرهما بقوله، وخدعهما بمكره. (١)

وفي قوله ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ ﴾ استعارة تمثيلية، ذكر هذه الاستعارة، وكشفها: محمد الطاهر ابن عاشور، يقول: ﴿ وأصل دلي: تمثيل حال مَن يطلب شيئاً من مظنته فلا يجده بحال من يدلي دلوه، أو رجليه في البئر؛ ليستقي من مائها فلا يجد ماء ﴾. (٢)

---

(١) يُنظر: المحرر الوجيز: ٣٨٥/٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٦١/٩ .

كما أن فيها إشارة إلى الهبوط من الأعلى إلى الأسفل، أصلها: ﴿الرجل العطشان يدلي في البئر؛ ليروى من الماء، فلا يجد فيها ماء، فيكون مُدَلَّى فيها بغرور، فُوضعت التدلية موضع الإطماع منها، ولا يجدي نفعاً، فيقال: دلاه إذا أطمعه ﴾.[١]

وثمة معنى آخر ذكره ابن عطية الأندلسي، يقول: ﴿وعندي أن يكون هذا استعارة من الرجل يدلي آخر من هوة بحبل قد أرم، أو بسبب ضعيف، يغتر به، فإذا تدلى به، وتورك عليه انقطع به فهلك، فشُبه الذي يُغر بالكلام حتى يصدقه فيقع في المعصية بالذي يُدلَّى في هوة بسبب ضعيف ﴾.[٢]

أشار أبو السعود في تفسيره إلى معنى السقوط من العلو إلى الدنو، يقول: ﴿وفيه تنبيه على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية؛ فإن التدلية، والإدلاء: إرسال الشيء من الأعلى إلى الأسفل ﴾[٣] ، يدل على هذا الهبوط: ﴿أنه حطهما من منزلة الطاعة إلى حال المعصية، ولا يكون التدلي إلى من علو إلى أسفل﴾.[٤]

جاء قوله – تعالى –: ﴿بِغُرُورٖۚ﴾ كالتعليل لموقف آدم وزوجه – عليهما الصلاة والسلام – في قبول هذه الوسوسة، وهذا الإغواء، والاستجابة لها، فالباء فيها للملابسة، والمعنى: ﴿أي دلاهما ملابساً للغرور، أي لاستيلاء الغرور عليه ﴾[٥]، فما زال يخدعه بزخرف من القول، ويكلمه بباطل من الوعود حتى أوقعه في الأكل من الشجرة، والمعنى: ﴿ أي بخداعه إياهما، وإظهار النصح، وإبطان الغش، وإطماعهما أن يكونا ملكين، أو خالدين، وبإقسامه أنه ناصح لهما ﴾.[٦]

ولذا جاء قوله: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾ استجابة لقوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ﴾، وفي العطف بحرف الفاء في قوله " فلما" إشارة إلى هذا المعنى، إشارة إلى سرعة الذوق من الشجرة، بعد الوسوسة لهما، وبعد حلف الشيطان لهما، وبعد أن دلاهما بغرور، كما أن فيه إشارة إلى سرعة الجزاء والعقاب.[٧]

---

(١) التفسير البسيط: ٦٦/٩ .

(٢) المحرر الوجيز: ٣٨٥/٢ .

(٣) إرشاد العقل السليم: ٢٢١/٣ .

(٤) معالم التنزيل: ١٥٣/٢ .

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ٦١/٩ .

(٦) تفسير البحر المحيط: ٢٨٠/٤ .

(٧) يُنظر: نظم الدرر: ٣٧٤/٧ .

جاء التعبير عن الأكل من الشجرة في هذا المقام بلفظة " الذوق" بصيغة " ذاقا"، وثمة أسرار بلاغية مراد تحقيقها من هذا التعبير، ومن المهم ذكره قبل بيان هذه الأسرار، أن أبين أن المراد بالذوق هنا: الأكل، على وجه الحقيقة، خلافاً لما ذهب إليه الدكتور عبدالعظيم المطعني، يقول – بعد أن تحدث عن بلاغة لفظة (الذوق) في القرآن الكريم –: ﴿وقد علمنا أن هذا التعبير مجاز استعاري في جميع صوره في القرآن الكريم، حتى في قوله: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾﴾[1]، فأقول: صحيح أن استخدام القرآن الكريم للفظة (الذوق) مجاز في كل مواضعها –كما سيأتي بيانه في هذا البحث – إلا في هذا الموضع، فاستخدام القرآن لها هنا من باب الحقيقة، وليس من المجاز، وثمة أسباب تجعلني أقول هذا القول، وآخذ به، ومن هذه الأسباب ما يأتي: ورود عبارات لكثير من المفسرين في الدلالة على أن المراد من قوله:﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾: الأكل، ومن ذلك: الإمام الطبري، يقول: ﴿فلما ذاق آدم وحواء ثمرة الشجرة، يقول: طعماه﴾[2]، وكذلك البغوي، يذكر أن معنى قوله: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾ **أي**: فلما أكلا منها[3]، وكذلك أبو حيان الأندلسي، ذكر أن قوله:﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾ ﴿**أي**: وجدا طعمها، آكلين منها ﴾.[4]

ومن الأدلة –كذلك–: التعبير في مواضع أخرى في القرآن الكريم في الحديث عن قصة آدم – عليه السلام – بالأكل دون الذوق، ومن ذلك قوله – تعالى– في سورة طه:﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ استدل الرازي بهذه الآية على أن الأكل في الآية حقيقة، يقول: ﴿ وذلك يدل على أنهما تناولا اليسير؛ قصداً إلى معرفة طعمه، ولولا أنه – تعالى– ذكر في آية أخرى أنها أكلا منها، لكان ما في هذه الآية لا يدل على الأكل؛ لأن الذائق قد يكون ذائقاً من دون أكل ﴾.[5]

وأما السرُّ البلاغي في مجيء لفظة " الأكل" في سورة طه، ولفظة " الذوق" في سورة الأعراف؛ جاء ذلك متوافقاً مع مقام كل سورة، وموضوعاتها، والألفاظ المعبرة عن هذه المقامات، وتلك الموضوعات،

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ٤٠٣/٢ .

(٢) المصدر السابق: ٤٠٣/٢ .

(٣) يُنظر: معالم التنزيل: ١٥٣/٢ .

(٤) تفسير البحر المحيط: ٢٨٠/٤ .

(٥) التفسير الكبير: ٤٩/١٤ .

ولذا «عُبِّر بالأكل في طه؛ لمناسبة التصريح بالمعصية، والغواية فيها، والتصريح بلفظ الجوع، وأما الذوق في الأعراف؛ فمناسب للنهي عن الاقتراب من الشجرة، ولمقام السورة كذلك القائم على التحذير».[1]

إذن فالمراد من الذوق في هذه الآية: الأكل، فما الأسرار البلاغية في التعبير عن الأكل بلفظة (الذوق) في هذا المقام في الحديث عن قصة آدم وزوجه – عليهما الصلاة والسلام – في الإخبار عن أكلهما من الشجرة التي نهاهما عنهما ربهما؟

من لطائف التعبير بلفظة (الذوق) في هذا المقام في الدلالة على الأكل من الشجرة: أن فيها إشارة إلى أنهما تناولا جزءاً يسيراً من الشجرة، وأن المقصود من هذا الأكل اليسير: هو معرفة الطعم، وليس الإقدام على المخالفة، والوقوع في المحظور، وثمة فرق بين ذوق الطعام، وبين أكله، فقد يكون ذوقاً دون أكل، ذكر الزمخشري أن معنى قوله:﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾: أي وجدا طعمهما، آخذين في الأكل منها .[2]

ومن دلالات لفظة (الذوق) في هذا المقام أن فيها إشارة إلى «أن الذي حذَّرهما الله منه وقع بمجرد أن ذاقا الشجرة، فضلاً عن الأكل منها، فكان الخير في امتثال أمر الله، وإلا فإن يسير المخالفة موقع في الضرر، وفي هذا إشارة إلى عظمة حكمة الله فيما ينهى عنه، أو يأمر به ».[3]

وفي هذا دلالة صريحة على شؤم المعصية، وعظيم أثرها على مرتكبها، فقد ترتب على هذا العمل اليسير العقاب العظيم، فقد عاتبه ربه أشد العتب، وأنزله – بسبب هذه المعصية – إلى الدنيا، وأخرجه من الجنة، يدل على شدة العتب قوله – تعالى –:﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[الأعراف: ٢٢]، والاستفهام في قوله:" أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا " للتقرير، والتوبيخ[4]، وهو «عتاب من الله وتوبيخ وتنبيه على الخطأ؛ حيث لم يتحذرا مما حذرهما الله من عداوة إبليس »[5]، فهو عتاب على مخالفة النهي، والأكل من الشجرة، وتوبيخ على الاغترار بقول العدو، والاستجابة له فيما طلب منهما.[6]

---

(١) متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام: ١٩٤ .

(٢) يُنظر: الكشاف: ٢/٧٣ .

(٣)دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ٣٢٤ .

(٤) يُنظر: تفسير التحرير والتنوير: ٩/٦٦ .

(٥) الكشاف: ٢/٧٣ .

(٦) يُنظر: تفسير القاضي البيضاوي: ٢/٢٣٤ .

وأتبع – سبحانه – هذا العقاب بقوله:﴿ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾، جاءت هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها؛ إشارة إلى علاقة هذا القول بالعتاب السابق، ذكر هذا المعنى محمد الطاهر ابن عاشور، يقول: وعطف جملة " وَأَقُل لَّكُمَآ " على جملة " أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا " للمبالغة في التوبيخ؛ لأن النهي كان مشفوعاً بالتحذير من الشيطان، الذي هو المغري لهما بالأكل من الشجرة، فهما قد أضاعا وصيته ﴾.(١)

ومن دلالات لفظة (الذوق)، وبلاغتها في هذا المقام: الإشارة إلى عِظَم الذنب الذي اقترفاه، وأنه في هذا المقام يستوي فيه القليل والكثير، والصغير والكبير، ولذا قيل: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت، ﴿ وهذا درس عظيم للمسلمين من بعد في التحذير من المعصية، حتى ولو كانت صغيرة، أو على وجه النسيان، حيث لم يمنع ذلك كله من اعتبار هذه المخالفة معصية، فكيف بمن يرتكب الكبيرة عمداً؟! ﴾(٢)، فالذنب الذي صدر من آدم وزوجه هو الذوق فقط، وهو لا يكون إلا قليلاً، كما أنه من مقدمات الأكل، وقد ترتب على هذا كله الجزاء العظيم، يدل على عِظَم الذنب – خلاف ما سبق ذكره – قوله: " بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا " ذلك كله بسبب أن ذاقا من الشجرة، بل إنهما وجدا طعمها(٣)، ولذا فقد ﴿ علق حكم العقوبة بالذوق؛ إذ هو أول الأكل، وبه يُرتكب النهي ﴾.(٤)

دلت لفظة (الذوق) في هذا المقام: على تعظيم الذنب، والتحذير من القرب منه، فضلاً عن الوقوع فيه واقترافه؛ وذلك أن الذوق مقدمات الأكل، ولا يكون إلا نزراً يسيراً، ومع ذلك دلت الآية – من خلال لفظة (الذوق)–: ﴿ على أن بدو سوآتهما حصل عند أول إدراك طعم الشجرة؛ دلالة على سرعة ترتب الأمر المحذور عند أول المخالفة ﴾.(٥)

المقام الثاني: ورود لفظة (الذوق) في مقام تحذير النبي – عليه الصلاة والسلام – من اتباع المشركين: وبيان محاولات كفار قريش، وحرصهم على فتنة الرسول – صلى الله عليه وسلم – في قوله – تعالى – في سورة الإسراء: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٦٧/٩ .

(٢) متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام: ١٩٥ .

(٣) يُنظر: نظم الدرر: ٣٧٢/٧ .

(٤) المحرر الوجيز: ٣٨٦/٢ .

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ٦٢/٩ .

خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ .

والمعنى –كما يذكر ابن كثير–: أنها إخبار من الله – سبحانه وتعالى – ﴿عن تأييده لرسوله – صلوات الله وسلامه عليه –، وتثبيته، وعصمته، وسلامته من شر الأشرار، وكيد الفجار، وأنه – تعالى – هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه، وحافظه، وناصره، ومؤيده، ومظهر دينه على من عاداه، وخالفه، وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها ﴾.(١)

إذن فهذه هي الأمور التي أنجى الله منها رسوله محمداً – صلى الله عليه وسلم –، فقد ثبته وعصمه من ذلك كله.

ذكر – سبحانه – عقوبة رسوله لو حدث منه شيء من ذلك ، – حاشا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذلك، في قوله – تعالى–: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ .

جاءت لفظة " الذوق" في هذا المقام في الدلالة على شدة العذاب، وتحققه وتمكنه من المعذَّب، يدل على عِظم العذاب: عِظم الجرم، وشدة الذنب، فإن الجزاء من جنس العمل، جاء التعبير عن عِظم هذا العذاب وشدته بلفظة " أذقناك"، ولكن هذا العذاب لم يحدث؛ لعدم حدوث الفعل من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وذلك أن معنى الآية: ﴿لو فعلتَ ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات، يعني أضعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة ﴾.(٢)

ومن دلالات لفظة " الذوق" وبلاغتها في هذا المقام: أن فيها إشارة صريحة، ودلالة أكيدة على علو مقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وارتفاع شأنه، وأنه في المقام الأعلى، والمحل الرفيع؛ ﴿وذلك أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله، وارتفاع منزلته ﴾(٣)، كما أشار إلى هذا المعنى السعدي، إذ ربط بين شدة العذاب، وبين علو مقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: يقول – في بيان معنى هذه

(١) تفسر القرآن العظيم: ٥٩/٣ .

(٢) معالم التنزيل: ١٢٧/٣ .

(٣) الكشاف: ٤٦١/٢ .

الآية -: « أي لأصبناك بعذاب مضاعف في الدنيا والآخرة؛ وذلك لكمال نعمة الله عليك، وكمال معرفته »[1].

ومن هنا فقد دل التضعيف في ذوقه لهذا العذاب على شرف قدره، وعلو مكانته، ولا غضاضة من هذا التضعيف؛ فإنه « شائع مع النبيﷺ في أجره، وفي ألمه، وعقاب أزواجه »[2].

كما أن هذا العذاب الأليم، والتهديد به؛ لا يغض من قدره، ولا ينقص من شرفه ؛ لكون هذا الركون لم يصدر منهﷺ ؛وذلك « أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها، والتهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها، فلا يلزم من الآية الطعن في العصمة »[3].

بل إن الآية تعريض بغيره، ونهي غيره من الركون إلى المشركين بطريق غير مباشر؛ لكون رسول اللهﷺ معصوماً من الوقوع في هذا الأمر، ولكن جاءت الآية بهذا الأسلوب « مخاطبة لأمته؛ لئلأ يركن أحد من المؤمنين إلى أحد من المشركين في شيء من أحكام الله، وشرائعه »[4].

ثم ختم – سبحانه – الآية بقوله ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ ، وثمة ارتباط بين خاتمة الآية، وبين التهديد لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – بإذاقته العذاب، تجلى هذا الارتباط، وظهر من خلال العطف بين الجملتين بحرف العطف " ثم"، أشار إلى هذا الارتباط محمد الطاهر ابن عاشور بقوله: « " ثم" للترتيب الرتبي؛ لأن عدم الخلاص من العذاب أهم من إذاقته، فرتبته في الأهمية أرقى »[5].

ومن هنا يتبين من خلال قوله ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ أن فيها تهديداً عظيماً، وزجراً شديداً عن الركون إلى المشركين، جاء التعبير عن عقوبة الركون إليهم بإذاقته العذاب، مما يدل على شدته، ويبين عظمته، وأنه عذاب دائم لا ينقطع، جاءت لفظة " أذقناك" في الدلالة على هذا المعنى وتأكيده، مما يدل على أن لها أثراً وتأثيراً في الدلالة على هذا المعنى في هذا المقام، ومن هنا يتجلى سرُّ إيثار لفظة الذوق في هذا المقام، والله – تعالى- أعلم بمراده.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ١٢٥/٣ .

(٢) المحرر الوجيز: ٤٧٥/٣ .

(٣) فتح القدير: ٢٤٧/٣ .

(٤) التفسير البسيط: ٤٢١/١٣

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ١٧٧/١٤ .

المقام الثالث: في بيان نعيم أهل الجنة في أنهم لا يموتون فيها: وذلك في قوله – تعالى – في سورة الدخان: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

تتحدث هذه الآيات عن النعيم المقيم لأهل الجنة في الجنة، ومن أجل النعيم الذي هم فيه أنهم ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ ﴾، جاء نفي الموت عنهم بقوله: " لا يذوقون"، فما السرُّ في اختيار لفظة (الذوق) في هذا المقام في الحديث عن نعيم أهل الجنة في الجنة؟ جاءت لفظة (الذوق) في هذا المقام متوافقة مع الغرض الذي سيقت له هذه الآيات، ومحققة كذلك كمال النعيم الذي يتنعم به المؤمنون في الجنان، فهم خالدون مخلدون.

ولذا فقد نُفي عنهم مقدمات الموت وأسبابه، كما أن الذوق مقدمة الأكل والشرب، والمعنى: أن المؤمن في الجنان «لا يتجدد لهم أوائل استطعامه، فكيف بما رواء ذلك؟ »[1]، فهم لا يذوقون في الجنة طعم الموت، بَلْه غصصه وسكراته وآلامه، كيف و قد جربوا ذلك وقاسوا آلامه في الدنيا؟!.

ومن هنا جاءت لفظة (الذوق) في هذا المقام؛ لإظهار كمال نعيمهم، وبيان مقدار سرورهم، وشدة حبورهم؛ وذلك لهم وحدهم، فإن قيل: «أليس أهل النار لا يموتون؟ فلِمَ بُشر أهل الجنة بهذا مع مشاركة غيرهم في هذا المعنى؟ قيل: إن أهل الجنة في حياة هنيئة، بشارتهم بالخلود تزيدهم سروراً، وقرة عين، وأهل النار يموتون موتات كثيرة؛ بما يقاسون من الشدة، وانتفاء الموت عنهم يزيدهم حسرة، وشدة وجد »[2].

جاءت لفظة (الذوق) في هذا المقام؛ لتحقيق هذه المعاني كلها، ولتحقق معنى الآية، ولتزف لهم البشرى أنهم في الجنة لا يموتون أبداً، فالاستثناء في الآية استثناء منقطع، والمعنى: سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا[3]، ولذا تعددت أقوال المفسرين في بيان معنى " إلا" فقيل: إنها بمعنى: " سوى"، والمعنى: أي سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا[4]،، وقيل: إنها بمعنى: "بعد"، أي بعد الموتة الأولى، وقد ذاقوها. [5]

---

(١)نظم الدرر: ١٨/٥٠ .

(٢) التفسير البسيط: ٢٠/١٢٦ .

(٣) يُنظر: فتح القدير: ٤/٢٧٩ .

(٤) يُنظر: معالم التنزيل: ٤/١٥٥ .

(٥) يُنظر: التفسير البسيط: ٢٠/١٢٧ .

ولذا فأسلوب الآية من تأكيد الشيء بما يشبه ضده، والغرض منه: ﴿زيادة تحقيق انتفاء ذوق الموت عن أهل الجنة، فكأنه قيل: لا يذوقون فيها الموت ألبتة، وقرينة ذلك وصفها بالأولى ﴾[1].

جاء التعبير بلفظة " لا يذوقون" في هذا المقام؛ لتدل على عظيم النعيم الذي يتنعم به المؤمنون في الجنة، وأنه نعيم عظيم لا تبلغه أعمالهم، وإنما هو فضله – سبحانه تعالى –، وكرمه بعباده المؤمنين، كما جاء قوله – تعالى – بعدها: ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾؛ إشارة إلى هذه الحقيقة، والمعنى: ﴿أن حصول النعيم، واندفاع العذاب عنهم من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه – تعالى– هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم – أيضاً– ما لم تبلغه أعمالهم ﴾[2].

المقام الرابع: في مقام الرحمة في الدنيا: وذلك في قوله – تعالى – في سورة الروم:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ يذكر – سبحانه – في هذه الآية شيئاً من نعمه على المؤمنين، وصورة من صور قدرته، فمن نعمه – سبحانه وتعالى – على المؤمنين:﴿ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ وإرسالها من دلائل رحمته بعباده، وبديع قدرته، وفي مجيء لفظة (الرياح) جمعاً إشارة إلى تعدد هذه الرياح وتنوعها، والمراد بها: رياح الجنوب والشمال، والصبا، وكلها رياح خير ورحمة، بخلاف الدبور؛ فإنها ريح عذاب[3]، كما أن فيها إشارة إلى الخير الذي تحمله في طياتها، أكد هذا المعنى وصفها بلفظة " مبشرات"، فهي تبشر بالغيث، ونزول المطر[4]، ولذا فهي مؤذنة بالخير العميم على العباد.

ثم قال – سبحانه – بعد ذلك:﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾، جاءت هذه الجملة معطوفة على"مبشرات" كأنه قيل: ليبشركم وليذيقكم[5]،، والمعنى: أنه يرسل هذه الرياح لتبشر الناس، وليذيقهم الله من رحمته، والمراد بالرحمة هنا: نزول المطر، وما يعقبه من الخصب والنماء[6]، ولا غرو أن يكون هذا المطر رحمة؛ فإن

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٣١٩/٢٥ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٤٧٢/٤ .

(٣)يُنظر: الكشاف: ٢٢٥/٣ .

(٤)يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤٨/٣ .

(٥)يُنظر: الكشاف: ٢٢٥/٣ .

(٦)يُنظر: معالم التنزيل: ٤٨٦/٣ .

الله يحي به البلاد والعباد، وهي رحمة لا حدود لها، ولذا فإن في لفظة "الرحمة" إيجاز قِصَر، فقد حوت جميع منافع هذا المطر وتوابعه .[1]

عُبر عن الإفادة من هذه الرحمة كلها، وبأنواعها المتعددة بلفظة (الذوق) في قوله:" وليذيقكم" وقد تضمن هذا التعبير أسراراً بلاغية، يُراد تقريرها في هذا المقام، فكما أن الذوق مقدمة للطعام، والاستمتاع به، فكذلك المطر هنا، فهو مقدمة لهذه المنافع كلها، ولذا يستبشر الناس بقدومه، ونزوله عليهم؛ لكون هذه الرياح مؤذنة بالخير، مبشرة بقدومه، فهي مقدمة لكل المنافع التي ذكرتْ في الآية في قوله:﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

ولأنها مبشرة بهذا كله، ومؤذنة به جاء التعبير عن ذلك بقوله:" وليذيقكم"؛ دلالة على أنها مقدمة لهذا الأمر، كما أن الذوق مقدمة للاستمتاع بالمذوق.

وكما أن الذائق لا يتذوق إلا شيئاً قليلاً، إذ لو كان كثيراً لصار أكلاً، ومن هنا دلت لفظة (الذوق) في هذا المقام أن القليل من رحمة الله كثير بمنافعه، كثير بما يترتب عليه من المصالح والمنافع، وهذا المطر الذي أنزله – تعالى – على عباده تعددت منافعه، وتنوعت مصالحه، يدل على هذا المعنى ويؤكده أن ذَكرتْ في هذه الآية عدة منافع يتحصل عليها العباد من نزول المطر، فقد ترتب على نزول المطر قوله:﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾، وقوله:﴿ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾، وقوله:﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾، وغيرها من النعم التي لا يعلمها العباد، ولا يقدرونها قدرها، ولذا خُتمت الآية بقوله:﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾؛ إشارة إلى كثرة هذه النعم وتنوعها.

وفي مجيء لفظة " تشكرون" في هذا المقام، وختم الآية بها: أمر غير مباشر بما ينبغي أن يكون عليه حال العباد مع هذه النعم، وهذا هو المقصود من ذكرها، وتعدادها عليهم، وهو: « أن تُقابل بشكر الله – تعالى–؛ ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم، وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي فهذه حال مَنْ بدَّل نعمة الله كفراً، ومنحته محنة، وهو معرّض لها للزوال، والانتقال منه إلى غيره »[2].

(١) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٦٣/٧ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٩٣/٤ .

حُذف مفعول " تشكرون"؛ إشارة إلى كثرة النعم وتعددها، أفاد الحذف الإطلاق، ولو ذُكر المفعول لتقيدت هذه النعم بالمذكور، وهذا يخالف كثرتها، وتنوعها، فحُذف المفعول إشارة إلى هذا المعنى، والتقدير:« أي تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى »[1].

كما دل حرف الجر " من" في قوله: " من رحمته" على هذا المعنى، فقد أذاقهم – سبحانه – شيئاً من رحمته، ونزراً قليلاً منها، جاءت لفظة (الذوق) في هذا المقام؛ لدلالة على هذا المعنى، والقليل منه – سبحانه – كثير؛ بمنافعه وآثاره؛ لأنه من الجواد الكريم.

أشار الرازي إلى هذه اللفتة، وإلى السرِّ البلاغي في التعبير بلفظة " الذوق" في هذا المقام، بقوله: « وقد ذكرنا أن الإذاقة تُقال في القليل، ولما كان أمر الدنيا قليلاً، وراحتها نزر، قال: " وليذيقكم"، وأما في الآخرة فيرزقهم، ويوسع عليهم، ويديم لهم »[2].

جاءت لفظة " ليذيقكم" فعلاً مضارعاً دلالة على التجدد والاستمرار، وذلك مظهر من مظاهر قدرته – سبحانه –، ومظهر – أيضاً – من مظاهر الرحمة، ومظهر من مظاهر الجود الدائم الذي لا ينقطع خيره، ولا يزول أثره، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

المقام الخامس: في مقام الموت وخروج الروح من الجسد: وردت لفظة (الذوق) في هذا المقام في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، وهذه المواضع هي:

١. في سورة آل عمران، في قوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ .

٢. في سورة الأنبياء، في قوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

٣. في سورة العنكبوت، في قوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

وثمة عدة وقفات مع لفظة (الذوق) في هذه الآيات الثلاث، الواردة في مقام الموت والاحتضار،

الوقفة الأولى: جاءت لفظة (الذوق) في هذه الآيات الثلاث في ثلاث سور مختلفات، تنوعت هذه السور بين المكي والمدني، فآية آل عمران مدنية، والآيتان الواردتان في سورتي الأنبياء والعنكبوت مكيتان[3]، ولهذا الأمر دلالة تحسن الإشارة إليها، وهو أن الحديث في هذه الآيات عن الموت، وهو نهاية

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤٨/٣ .

(٢) التفسير الكبير: ١٣١/٢٥ .

(٣) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١٩٣/١ .

كل إنسان، مؤمناً كان أو كافراً، فهي لا تخص قوماً دون قوم، وإنما سيأتي الموت على الجميع أياً كانوا بغض النظر عن دينهم وديانتهم، وباختلاف معتقداتهم، سواء كان مؤمناً بالموت والجزاء أو كافراً به، جاحداً له، ومن هنا تعدد نزول هذه الآيات، وجاءت هذه الحقيقة مقررة في كلا العهدين: المكي والمدني، إشارة إلى هذا الأمر، وتأكيداً .

ولعل غلبة ورودها في العهد المكي على المدني إشارة إلى أن المقصود من ذكر الموت هو ما بعده، من البعث؛ للجزاء والحساب، والمشركون في مكة ينكرون هذه القضية، ولا يؤمنون بها، ولذا تكرر نزول هذه الآيات عليهم؛ تذكيراً لهم بهذه القضية، من أجل إقامة الحجة عليهم، وإلزامهم بها؛ ذكرى ولعلهم يتقون.

الوقفة الثانية: جاء الإخبار بموت الخلائق كلها جميعاً بقوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾، وقد اتحدت هذه الصيغة في جميع الآيات الثلاث، فجاءت جميعاً من خلال الجملة الاسمية؛ إشارة إلى ثبات هذه الحقيقة وديمومتها؛ وذلك من خلال دلالة الجملة الاسمية على الثبات والدوام، إذن فهي حقيقة ثابتة مقررة، لا تقبل التغيير، فهو حكم قاطع، وأمر مقرر على كل نفس، فالموت خاتمة المطاف، ونهاية كل المخلوقات،كما جاءت صياغة هذه الحقيقة من خلال الجملة الاسمية متوافقة مع الغرض الذي سيقت له هذه الآيات؛ وذلك أن المقصود منها —كما يذكر الرازي –: ((هو تأكيد تسلية الرسول — عليه السلام –، والمبالغة في إزالة الحزن من قلبه، وذلك من وجهين: أحدهما: أن عاقبة الكل الموت، وهذه الغموم والأحزان تذهب وتزول ولا يبقى منها شيء، والحزن متى كان كذلك لم يلتفت العاقل إليه، والثاني: أن بعد هذه الدار داراً يتميز فيها المحسن عن المسيء، ويتوفر على عمل كل واحد ما يليق به من الجزاء، وكل واحد من هذين الوجهين في غاية القوة في إزالة الحزن، والغم عن قلوب العقلاء))[1].

كما أن في هذا الخبر وعداً ووعيداً للمصدق والمكذب[2]، ويعظم هذا الوعيد أن يكون حقيقة ثابتة، ومن هنا جاء الإعلام عنها من خلال الجملة الاسمية، دلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه، كما تضمنت هذه الحقيقة: ((التزهيد في الدنيا بفنائها، وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفَّى فيها النفوس ما عملت في هذا الدار من خير وشر))[3].

---

(١) التفسير الكبير: ١٢٤/٩ .

(٢) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ١٢٣/٢ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٣٠٠/١ .

الوقفة الثالثة: جاء التعبير في الآيات الثلاث في الحديث عن الموت بلفظة (الذوق)، في قوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾، فما الأسرار البلاغية في التعبير بهذا الأسلوب؟ وما دلالات لفظة (الذوق) في هذا المقام؟ لفظة (ذائقة) في جميع الآيات استعارة، وهي استعارة تصريحية تبعية، والمراد بها: وجدان الموت، شاع إطلاق هذه الاستعارة على وقوع الموت(١)، كما تكرر هذا المعنى في كتاب الله – عزَّ وجل–، وفي لغة العرب، ومن ذلك قوله – تعالى –: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان: ٥٦]، ومنه قول العرب: ذاق طعم الموت، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:·

من لم يمت غبطة يمت هرما الموت كأس والمرء ذائقها (٢)

جاءت لفظة (الذوق) في هذا المقام؛ إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه، فقد «جُعل الموت في مقاساة الآلام، والأسباب التي يحدث عندها الموت كالطعام الذي يُكره ذوقه، فلذلك استُعير له الذوق، وهو في الحقيقة عَرَض لا يُذاق ».(٣)

ومعنى الآية: « أن كل نفس ذائقة موت أجسادها، إذ النفس لا تموت، ولو ماتت لما ذاقت الموت في حال موتها؛ لأن الحياة شرط في الذوق، وسائر الإدراكات »(٤)، وهذا المعنى صحيح؛ وذلك « أن الذائق لا بد أن يكون حال ذوقه حياً حساساً »(٥)، يؤكد هذا المعنى ما ذكر الطبري في تفسيره، مبيناً أن المعنى: «كل نفس منفوسة من خلقه معالجة غصص الموت، ومتجرعة كأسها ».(٦)

جاء التعبير عن الموت بالذوق؛ إشارة إلى مقدماته، وما يصيب النفس منه من آلام غصصه، ومعاينة مقدماته، والمراد: أن النفس فيه تذوق مرارة مفارقتها للجسد(٧)، وكما أن الذوق مقدمة للأكل، فكذلك الذوق هنا مقدمة لما سيأتي بعده من سكرات الموت، وغصصه وآلامه، فالمراد بذوق الموت هنا: « ذوق آلام مقدماته، وأما بعد حصوله فلا إحساس للجسد ».(٨)

---

(١) يُنظر: المحرر الوجيز: ١/٥٥٠ ، و: تفسير التحرير والتنوير: ١٨٨/٤ .

(٢) يُنظر: ديوان أمية بن أبي الصلت: ٤٢١ .

(٣) التفسير البسيط: ١٢٦/٢٠ .

(٤) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين: ٥٢٤/١ .

(٥) نظم الدرر: ١٤٥/٥ .

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٨٦/١٦ .

(٧) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ١٦٦/٦ .

(٨) تفسير التحرير والتنوير: ٦٤/١٧ .

الوقفة الرابعة: جاء ذكر هذه الحقيقة في صدر الآيات الثلاث، فقد استفتحت الآيات كلها بقوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾، اتفقت الآيات كلها في بداياتها، ثم اختلفت كل واحدة منها في نهايتها، إشارة إلى اختلاف مصير كل إنسان بعد الموت، بين المؤمن والكافر، فكل نفس مفارقة جسدها، وستذوق طعم الموت، فهو أمر محتوم على كل نفس ، كما حكم بذلك من خلق هذه النفوس، وذكرها صريحة في قوله ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾، وبعد هذا الاتفاق يكون الاختلاف في المصير بعد أن تُبعث الخلائق من قبورها، وبعد أن تواجه الحساب على أعمالها التي اقترفتها في دنياها، فينقسم الناس بعدها إلى شقي وسعيد، فمنهم من تهلكه أعماله، فتطرحه في النار، ومنهم من ينجو منها، ويُزحزح عنها، ويدخل الجنة، ويفوز حينها فوزا عظيماً، والفوز الحقيقي، ومفترق الطرق في قوله: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ ، فكل النفوس ستذوق الموت، ولكن ليس كل هذه النفوس ستُزحزح عن النار، وتدخل الجنة؛ حتى تفوز الفوز الكامل.

ومن بلاغة القرآن الكريم: الجمع بين " زحزح عن النار" وبين " أدخل الجنة"، ﴿ مع أن في الثانية غنية عن الأولى، للدلالة على أن دخول الجنة يشمل على نعمتين عظيمتين: النجاة من النار، ونعيم الجنة ﴾ [1]، كما أن في ذكر الأمرين معاً تحقيق لمعنى الفوز، فضلاً عن دلالات لفظة " زحزح" في هذا المقام وإيحائها في هذا السياق.

وفي لفظة (زُحْزِحَ) ودلالاتها إشارة إلى شدة جاذبية النار تشد إليها من يقترب منها، ولذا فالبعد منها، والزحزحة عنها فوز وأي فوز!

إذن فهذا هو الفوز الحقيقي، ومن هنا جاء التعبير بقوله: (فَقَدْ فَازَ) أي: ﴿حصل له الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاز به، ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله، والفوز السرمد، ونيل رضوان الله، والنعم الخالد، اللهم وفقنا لما ندرك به عندك الفوز في المآب ﴾.[2]

إذن فهذا هو الفوز الحقيقي، والدنيا وما يكون فيها إنما هو متاع الغرور، ولذا خُتمت بها الآية في قوله: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾، وفي ذكر هذه الحقيقة بأسلوب القصر، بيان لحقيقة الدنيا، وكشف لزيفها، وأنها متاع يتمتع بها الإنسان إلى حين، وفي مجيء القصر بطريق بـ"إنما" إشارة إلى أنها حقيقة

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٨٨/٤.

(٢) الكشاف: ٤٨٥/١ .

مقررة، ومسلَّم بها، ومن ذا ينازع في هذه الحقيقة ويجادل؟ وصدق الله فإنها متاع، وفي التعبير عنها بالمتاع تنفير منها، وتصوير دقيق لحقيقتها، فهو متاع عن قريب زائل .

وأما في الآية الأخرى في سورة الأنبياء فبعد أن استُفتحت بقوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ، جاء بعدها قوله: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ، وثمة صلة وثيقة بين قوله: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ وقوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ فإذا كانت النفوس ستموت، وستذوق مرارته ومشاقه، فما الحكمة من خلقها ووجودها على هذه الحياة؟ جاءت الإجابة عن ذلك وبيانه في قوله: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فالحكمة إذن هي: الاختبار والابتلاء للناس بالخير والشر بأنواعها، ولذا فاللفظتان من إيجاز القصر، تضمنت كل واحدة منهما معاني لا حصر لها من صور الشر والخير، كما أن فيها طباقاً، ومن بلاغة هذا الطباق أنه يشمل جميع الأحوال التي يكون عليها الإنسان في هذه الحياة الدنيا، فالناس تُبتلى بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والعز والذل، وبالموت والحياة، وبكل ما تحب وما تكره.

جاء تقديم الشر على الخير في هذه الآية؛ لأن الابتلاء به أكثر وأظهر[١]، ولأنه الأنسب في مقام الوعيد، والأقرب – كذلك – لحال من خُوطب بهذه الآيات.[٢]

خُتمت هذه الآية، وآية العنكبوت بقوله: ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ ، جاء بيان هذه الحقيقة بأسلوب القصر – كذلك – بطريق التقديم والتأخير، تضمن هذا الأسلوب وعيداً شديداً بأن مردهم إلى خالقهم، فسيُردون إليه؛ للجزاء على أعمالهم حسنها وسيئها[٣]، كما أن فيها إشارة «إلى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا: الابتلاء، والتعرض للثواب والعقاب ».[٤]

المقام السادس: في مقام الحديث عن الأمم السابقة: وردت لفظة (الذوق) في هذا المقام في أربعة مواضع من القرآن الكريم، وهذه المواضع هي:

١. في سورة الأنعام، في قوله – تعالى- : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ .

٢. في سورة الحشر، في قوله – تعالى-: ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ .

---

(١) يُنظر: المحرر الوجيز: ٤/٨١ .

(٢) يُنظر: محاسن التأويل: ١١/٤٢٧١ .

(٣) يُنظر: التفسير البسيط: ١٥/٧١ .

(٤) إرشاد العقل السليم: ٦/٦٦ .

٣. في سورة الطلاق، في قوله – تعالى-: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ ﴾ .

٤. في سورة التغابن، في قوله – تعالى-: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ .

وهذه وقفات مع هذه الآيات؛ للنظر في الأسرار البلاغية في مجيء لفظة (الذوق) في هذا المقام

الوقفة الأولى: أن السور التي نزلت فيها هذه الآيات متنوعة بين المكي والمدني، فسورة الأنعام مكية، وبقية السور الأخرى مدنية[1]، ولا غرو أن تتنوع السور في الحديث عن هلاك الأمم السابقة، وبيان حالها، وما ألمَّ بها، وما آلت إليه لما كفرت، وكذبت بآيات ربها ورسله؛ وذلك أن الحديث عن حال الأمم السابقة يراد منه أخذ العظة والعبرة، وهذا الأمر من الأهمية بمكان، كما أنه ليس مرتبطاً بزمان ولا مكان، ولذا تكرر بيانه، وتعددت الآيات في الحديث عنه على امتداد العهدين: المكي، والمدني، فكفار قريش في مكة بحاجة إلى النظر في أحوال الأمم السابقة؛ للاتعاظ بحالهم، وعدم السير على خطاهم؛ لكيلا يصيبهم ما أصابهم، وكذلك المؤمنون في المدينة، ومن كان معهم من الطوائف الأخرى من اليهود والمنافقين بحاجة –كذلك – إلى النظر في أحوال الأمم السابقة، والوقوف عند مصيرهم، وكيف أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر؛ بغية الاتعاظ والادكار، ولذا جاءت لفظة (الذوق) في هذا المقام في العهدين: المكي، والمدني؛ إشارة إلى هذا المعاني كلها، وتأكيدها، والتذكير بها.

الوقفة الثانية: جاءت لفظة (الذوق) في هذا المقام في جميع هذه الآيات بصيغة الفعل الماضي "فذاقوا"، " فذاقت"، وهو أمر طبعي –كذلك-؛ لأن الحديث في هذه الآيات جميعاً عن وقائع حدثت وانتهت، ومضت وانقضت، حدثت هذه الأفعال في الزمن الغابر قبل نزول هذه الآيات، وقبل وجود الأمة المحمدية، كما أن في هذه الصياغة مزيداً من التهديد والوعيد؛ إشارة إلى أن أمر الله وقع، ونفذ فيهم، وأنه لا راد لقضائه، وقد أشار بعض المفسرين إلى التهديد الذي تضمنته هذه الآيات، ومن ذلك قول الإمام الطبري: ﴿وهؤلاء الآخرون مسلوك بهم سبيلهم إن هم لم ينيبوا، فيؤمنوا ويصدقوا بما جئتهم به

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١٩٣/١ .

من عند ربهم »[1]، وكذلك ابن عطية الأندلسي يقول – في معنى قوله :﴿ حَتَّىٰٓ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ ﴾-: أنه وعيد بيّن[2]، وتحذير لهم بعاقبة أمرهم، الذي إليه سيؤولون .

الوقفة الثالثة: جاء في الآية الأولى في سورة الأنعام في الحديث عن الأمم السابقة قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ ﴾، والمراد بـ(البأس) هنا: العذاب[3]، وفي التعبير بلفظة (البأس) إشارة إلى شدته، وعظمته، وأنه لا حول لهم ولا قوة برده ودفعه، ويدل على عظمته إسناد ضمير العظمة لله – سبحانه وتعالى-، فأنى لهم – والحالة هذه – رده أو مقاومته؟! كيف وقد استحقوا هذا العذاب؟ بدلالة الحرف "حتى" في هذا المقام على الغاية، فهي«غاية لامتداد التكذيب إلى وقت العذاب؛ لأنه إذا حلَّ العذاب لم يبق تكذيب»[4].

وأما الآيات الثلاث الأخر فجاء الحديث عن هلاكهم بقوله: ﴿ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ ﴾، وقوله:﴿ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا ﴾، وقوله: ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ ﴾، والمعنى: عقوبة فعلها، وجزاء أمرها الذي أقدمت عليه[5]، والمعنى – كما يذكر ابن كثير-: « أي وخيم تكذيبهم، ورديء أفعالهم، وهو ما حلَّ بهم في الدنيا من العقوبة والخزي »[6].

بيد أن الآيات الثلاث سلكت مسلكاً بديعاً في التعبير عن هذا المعنى، وذلك في قوله: ﴿ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ ﴾؛ وذلك أن الوبال: هو الشدة والثقل المترتبة على جزاء الأفعال[7]، مأخوذ من قولهم: كلأ وبيل، أي وخيم، إذا كان سيء العاقبة[8]، وأصل الوبال: « وخامة المرعى، المستلذ للماشية، يقال: كلأ وبيل، إذا كان مرعى خضراً، حلوا تهمش إليه الإبل، فيحبطها، ويمرضها، أو يقتلها »[9].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٦٥٠/٩ .

(٢) يُنظر: المحرر الوجيز: ٣٥٩/٢ .

(٣) يُنظر: معالم التأويل: ١٣٩/٣ .

(٤) تفسير البحر المحيط: ٢٤٨/٤ .

(٥) يُنظر: معالم التنزيل: ٣٦١/٤ .

(٦) تفسير القرآن العظيم: ٣٩٥/٤ .

(٧) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٢٥٦/٨ .

(٨) يُنظر: الكشاف: ٨٦/٤ .

(٩) تفسير التحرير والتنوير: ١٠٨/٢٨ .

وهذا من بلاغة القرآن الكريم، وهو تشبيه مردهم المخزي، عاقبتهم السيئة بخسارة التاجر في بيعه؛ فقد عاقبهم – سبحانه – بسوء صنيعهم، وما ربك بظلام للعبيد .

ومن هنا جاءت لفظة (وبال) إشارة إلى أن ما أقدموا عليه خطب فظيع، وجناية عظمى[1]؛ وذلك « أنها كالشيء الثقيل المحسوس؛ وذلك لأن الوبال في الأصل: الثقل، ومنه الوبيل للطعام الذي يثقل على المعدة، والوابل من المطر: الثقيل القطر ».[2]

الوقفة الرابعة: جاء التعبير عن هلاك الأمم، وما حلَّ بها من العذاب بلفظة (الذوق)، فما سرُّ مجيء هذه اللفظة في هذا المقام؟ جاءت لفظة (الذوق) هنا، وفي هذا المقام؛ لأن فيها مزيداً من الحِكَم والأسرار التي تُظهِر الغرض، وتحقق المقصود من هذه الآيات، جاءت لفظة (الذوق) إشارة إلى شدة العذاب، وقوة وصولهم له، وشدة إحساسهم به، فقد «شُبه ما حلَّ بهم من العذاب بشيء ذي طعم كريه، يذوقه من حلَّ به ويبتلعه؛ لأن الذوق باللسان أشد من اللمس باليد أو بالجلد، والمعنى: أحسوا العذاب في الدنيا إحساساً مكيناً ».[3]

كما تضمن قوله: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ سراً بلاغياً آخر في مجيء لفظة (الذوق) من خلال هذا التركيب، في هذا المقام، ذكر محمد الطاهر ابن عاشور، أن في لفظة (الذوق) في هذا التركيب استعارة مكنية، ثم بيَّنها بقوله: «شُبهوا في إقدامهم على حرب المسلمين، مع الجهل بعاقبة تلك الحرب بإبل ترامت على مرعى وبيل، فهلكت، وأثبت الذوق على طريقة المكنية وتخييلها، فكان ذكر " ذاقوا" مع " وبال" إشارة إلى هذه الاستعارة ».[4]

كما أن في مجيء لفظة (الذوق) في هذا المقام؛ إشارة إلى أن ما أصاب الأمم من عذاب في الدنيا، فإنه قليل لما ينتظرهم من العذاب في الآخرة؛ وذلك أن الذوق لا يكون إلا نزراً يسيراً، كما أنه مقدمة لما سيأتي بعده، كما أشارت الآيات إلى هذا المعنى، وأومأت إليه، ومن ذلك: قوله: ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، فقد ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا، ولهم في الآخرة العذاب الأليم؛ وذلك أن العطف يقتضي المغايرة .[5]

---

(١) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٢٥٦/٨ .

(٢) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين: ٢٠/٨ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٢٦٨/٢٨ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير: ١٠٨/٢٨ .

(٥) يُنظر: التفسير البسيط: ٣٨٩/٢١، و: تفسير التحرير والتنوير: ٢٦٨/٢٨ .

بل إن العذاب الوارد في سورة " الطلاق" –كما يذكر الزمخشري– في قوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ المراد به: ﴿حساب الآخرة وعذابها، وما يذوقون فيها من الوبال، وما يلقون من الخسر، وجيء به على لفظة الماضي، كقوله: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ﴾ [الأعراف:٤٤] ونحو ذلك؛ لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى في الحقيقة، وما هو كائن فكأن قد﴾.[1]

وثمة مقام آخر ورد فيه تركيب ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾، وهو المقام السابع من المقامات الوارد فيها لفظة " الذوق"، وذلك في مقام الأحكام الشرعية، وما يترتب عليها من الكفارة، وذلك في قوله –تعالى–: في سورة المائدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

وهذه بعض الوقفات المتعلقة بدلالة ورود لفظة " الذوق" في هذا المقام

الوقفة الأولى: أن " اللام" في قوله: " ليذوق" للتعليل، وهي متعلقة بقوله: " فجزاء"، والمعنى: أي جُعلتْ تلك الكفارة؛ جزاء عن فعله الصيد؛ ليذوق وبال أمره[2]، ولذا فهي بمعنى: "كي"، أشار إلى هذا المعنى الإمام الطبري، في تفسيره، يقول: ﴿أي: أوجبتُ على قاتل الصيد محرماً ما أوجبت من الجزاء والكفارة الذي ذكرت في هذه الآية؛ كي يذوق وبال أمر ما نهاه الله عنه، ومعنى " أمره" أي ذنبه، وفعله الذي فعله من قتله ما نهاه الله – عزَّ وجل – عن قتله في حال إحرامه ﴾.[3]

الوقفة الثانية: أن السورة التي نزلت فيها هذه الآية سورة المائدة، وهي سورة مدنية، ولذا أخذت الآية خصائص الآيات المدنية: الموضوعية، والأسلوبية، فجاءت لفظة " ليذوق" هنا في مقام الحديث عن الأحكام الشرعية، وما يترتب عليها من كفارات، فقد اختُصت الآيات المدنية بالحديث عن الأحكام الشرعية، فضلاً عن طول هذه الآية، فُبنيتْ الآية على أسلوب الإطناب، جاء فيها تفصيل هذه الأحكام وبيانها، ولأن المخاطبين بهذه الآية هم المؤمنون، بدلالة صدر الآية؛ إذ افتُتحت بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) الكشاف: ١٢٣/٤ .

(٢) يُنظر: الكشاف: ٦٤٥/١، و: تفسير التحرير والتنوير: ٥٠/٧ .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٧١٢/٨ .

﴾ فجاءت ألفاظها، ولهجة خطابها متوافقة مع القوم المخاطبين بها، بخلاف الآيات المكية التي تميزت بخصائص موضوعية، وأسلوبية منبثقة مع خصائص كفار قريش المخاطبين بها.

الوقفة الثالثة: جاءت لفظة " ليذوق" في هذا المقام، وفي هذا التركيب فعلاً مضارعاً ، بخلاف مجيئها في مقام الحديث عن الأمم السابقة، فقد تكرر تركيب " وبال أمره" في هذه الآية أيضاً، ولكن في الآيات الماضيات الواردة في مقام الحديث عن الأمم السابقة وردت لفظة " الذوق" بصيغة المضي: " فذاقت"؛ لكونها تتحدث عن أمم ماضية نالت عقوبتها، وحلَّ بها سوء فعلها، فهي تتحدث عن أمم مضت وانقضت، أما في هذه الآية فجاءت لفظة " ليذوق" فعلا مضارعاً، وهذا هو المتوافق مع مقام الأحكام الشرعية، والمتوافق –كذلك– مع المخاطبين بهذه الآية، ففي هذه الصياغة إشارة إلى التجدد والحدوث، فيتجدد هذا الذوق؛ لتجدد حدوث هذه المخالفات، ومن هنا ترتبت هذه العقوبة على هذه المخالفة، وهذه المخالفة متجددة؛ لتجدد وقوعها، وتكرر حدوثها، فهذا الحكم الشرعي قائم وباقٍ من نزول الآية وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومن هنا جاءت صيغة " ليذوق" فعلا مضارعاً دلالة على هذا الأمر، والمعنى: ليتجدد له ذوقه، وليحدث له ذلك مرة بعد أخرى؛ جزاء ما اقترفت يداه.

الوقفة الرابعة: سبق بيان معنى قوله: (وبال أمره) في المقام السابق؛ لتعلقها بحال الأمم السابقة، أما هنا فإن معناها متعلق بمن يرتكب بعض المحظورات، وهو هتك حرمة الإحرام، بقتل الصيد، ومن ثَم ينال جزاءه وعقوبته، ولذا فالمعنى – وإن كان واحداً، وبينهما اتفاق– إلا أن ثمة اختلافاً قليلاً في المعنى؛ لاختلاف مقام كل واحدة منهما، فالوبال –كما سبق بيانه –: الشيء الثقيل، الذي يحصل منه المكروه والضرر، ويتأذى منه بعد أكله؛ لسوء عاقبته، وثقله، ومنه المرعى الوبيل: إذا كان فيه وخامة.(١)

جاء في هذا التركيب في مقام الكفارات والعقوبات إشارة إلى « أن إخراج الجزاء ثقيل على النفس؛ لِما فيه من تنقيص المال، وثقل الصوم على النفس، من حيثُ إن فيه إنهاك البدن ».(٢)

و " أمره" في قوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾ لفظة جامعة، لكل ما اقترفه من المحظورات، وما أقدم عليه، كما أن فيها إيهاماً لها، وتفخيماً لشأنها وتهويلاً؛ تعظيماً للإقدام عليها، وأنها من الخطورة بمكان، فقد أفاد هذا التعميم التهويل والتعظيم.

---

(١) يُنظر: الكشاف: ١/٦٤٥، و: فتح القدير: ٢/٧٨ .

(٢) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين: ٢/٢٧٦ .

الوقفة الخامسة: جاء التعبير عن جزاء من أقدم على فعل هذه المحظورات بالذوق، في قوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ﴾، فما الأسرار البلاغية التي تضمنتها لفظة " ليذوق" في هذا المقام؟ جاءت وفي هذا المقام؛ إشارة إلى الشدة والثقل، وإشارة –كذلك – إلى سوء العاقبة، وسوء المآل، الذي آل إليه بسبب هذه المخالفات، وما ترتب عليها من كفارات، ففيها إشارة إلى ((ما يؤثر فيه من غرامة، وإتعاب النفس بالصوم، والوبال: سوء عاقبة ما فعل، وهو هتك حرمة الإحرام بقتل الصيد)).(١)

كما أن فيها إشارة إلى المشقة التي لحقته، ونالت بدنه وماله، فكما أن في الوبال ثقلاً، فكذلك الكفارات المترتبة عليها، فقد ذاق عاقبتها، ونالته الشدة والمشقة بسببها.(٢)

أشار محمد الطاهر ابن عاشور إلى المعنى المراد في لفظة " ليذوق" في هذا المقام، وسرها البلاغي، يقول: ((والذوق مستعار للإحساس بالكدر، شُبه ذلك الإحساس بذوق الطعام الكريه، كأنهم راعوا فيها سرعة اتصال ألمه بالإدراك، ولذلك اشتهر إطلاق الذوق على إدراك الآلام واللذات، وشهرة هذه الاستعارة قاربت الحقيقة)).(٣)

المقام الثامن: في مقام مخاطبة كفار قريش: وردت لفظة " الذوق" في هذا المقام في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، وهذه المواضع هي:

١. في سورة النحل، في قوله – تعالى- : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤ ﴾ .

٢ . في سورة النحل، في قوله – تعالى- : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ ﴾ .

٣ . في سورة ص، في قوله – تعالى- :﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨ ﴾ .

وفيما يأتي وقفات مع بلاغة القرآن الكريم في استخدام لفظة " الذوق" في هذا المقام:

الوقفة الأولى: جميع هذه الآيات نازلة في العهد المكي، فسورة " النحل"، وسورة " ص" مكيتان(٤)، وفلا غرو في هذا فالآيات الثلاث كلها تتحدث عن كفار قريش، وتبين موقفهم من الرسالة وصاحبها،

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٤/٢٥ .

(٢) يُنظر: فتح القدير: ٢/٧٨ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٧/٥٠

(٤) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١/١٩٣ .

فهي تضرب لهم الأمثال؛ لعلهم يتذكرون، ومن هنا جاءت الآيات متوافقة مع خصائص الخطاب المكي، ولذا نلحظ فيها قوة لهجتها، وشدة خطابها، وتوافر الأساليب والتعبيرات التي تدل على الإنكار، والتعجب، والتقرير والتهديد، والإضراب، وغير ذلك من الأساليب التي تلائم ظروف الدعوة وطبيعتها في العهد المكي.(١)

ومن هذه الخصائص الأسلوبية: أسلوب الإضراب، ظهر ذلك جلياً في الآية في سورة "ص" في قوله – تعالى-: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾، ورد أسلوب الإضراب بـ"بل" في الآية مرتين، ولا يخفى أن هذا الأسلوب ﴿يرتبط بجو المواجهات والمجادلات بين الخصوم، حيث يضرب كل طرف عن آراء غيره؛ ليدلي هو بما يراه صحيحاً، أو ليمعن في إثبات رأيه، ولا بد بالطبع أن يكون إضراب صاحب الحق في هذه المواجهات أظهر وأكثر ﴾.(٢)

الوقفة الثانية: جاءت لفظة " الذوق" في الآيات الثلاث في مقام التحذير والوعيد الشديد لكفار قريش، ومن ثَم جاءت لفظة " الذوق" من حيث مقامها وصياغتها متوافقة مع هذا المقام، ففي الآية الأولى من سورة " النحل" في قوله – تعالى -: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ وردت في مقام النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً، وهو نهي عن اتخاذ الأيمان خديعة ومكراً بينهم، جاء النهي عنه؛ ﴿لعظم موقعه من الدين، وتردده في معاشرات الناس ﴾.(٣)

وبعد أن نهى – سبحانه – عن ذلك بيَّن ضرره وعاقبته في قوله: ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾، وهو أسلوب بليغ معبر في التحذير من اتخاذ الأيمان دخلاً في بيان عاقبته الوخيمة عليهم، جاء التحذير من خلال أسلوب الاستعارة التمثيلية، وقد ذكر هذه الاستعارة وأبانها: محمد الطاهر ابن عاشور، يقول: ﴿وزلل القوم تمثيل لاختلاف الحال، والتعرض للضرر؛ لأنه يترتب عليه: السقوط، أو الكسر، كما أن ثبوت القوم تمكن الرجل من الأرض، وهو تمثيل لاستقامة الحال، ودوام السير، ولما كان المقصود: تمثيل ما يجره

(١) يُنظر: مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين: ١٢٤ .

(٢) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين: ١٣٧ .

(٣) المحرر الوجيز: ٤١٩/٣.

نقض الأيمان من الدخل شُبهتْ حالهم بحال الماشي في طريق بينما كانت قدمه ثابتة إذ هي قد زلت به فصُرع، فالمشبه بها حال رِجْل واحدة ﴾.[1]

ولم تقف بلاغة هذ الأسلوب عند حدِّ الاستعارة، فلا زال فيها مزيد للمستبصرين، ولذا أشار كثير من المفسرين إلى دلالات هذا الأسلوب وبلاغته، ومن ذلك: الإشارة إلى بلاغة ذكر لفظة "قدم" في هذا المقام، ذُكرتْ هنا؛ ﴿لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر ﴾[2]، كما جاءت لفظة "قدم" مفردة ونكرة، أشار إلى سرِّ هذا الأمر وبلاغته الزمخشري، يقول: ﴿فإن قلتَ: لم وُحدتْ القدم ونُكِّرتْ؟ قلت: لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟! ﴾.[3]

وفي قوله: " بعد ثبوتها" مزيد بلاغة؛ إذ إن الزلل لا يكون إلا بعد الثبوت والاستقرار، فما دلالة ذكرها؟ وما سرُّ بلاغتها في هذا المقام، بيّن سرَّ ورودها في هذا المقام محمد الطاهر ابن عاشور في قوله: ﴿ وزيادة " بعد ثبوتها" مع أن الزلل لا يتصور إلا بعد الثبات؛ لتصوير اختلاف الحالين، وأنه انحطاط من حال سعادة إلى حال شقاء، ومن حال سلامة، إلى حال محنة ﴾.[4]

ثم ذكر – سبحانه – عقاباً آخر في قوله: ﴿ وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ وهو موضع الشاهد في هذه الآية، فجزاؤهم مرتبط باتخاذهم الأيمان دخلاً بينهم؛ بدليل قوله: ﴿ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ .

وفي الموضع الآخر من سورة النحل جاء قوله – تعالى-: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾، إثر فعل مشين، وجرم كبير، صدر من كفار قريش، جاءت الإشارة إليه في قوله: ﴿ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ ﴾ بعد أن كانت ﴿ ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ ﴾ ، والقرية التي ضربها الله مثلاً هي: مكة عند عموم المفسرين[5]، فكانت آمنة مطمئنة، تنعم بالأمن والأمان، ويُتخطف الناس من حولها، وهي آمنة في سربها، لا يُهاج أهلها، ولا يُغار عليها.[6]

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٢٦٩/١٤ .

(٢) المحرر الوجيز: ٤١٩/٣ .

(٣) الكشاف: ٤٢٧/٢ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير: ٢٦٩/١٤ .

(٥) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٦٤٩/٢، و: التفسير البسيط: ٢١٤/١٣، فتح القدير: ١٩٩/٣.

(٦) يُنظر: معالم التنزيل: ٨٧/٣ .

ومن تمام نعمة الله على أهل مكة: أن كانت نعمه دائمة عليهم، ثابتة لهم، لا تحول ولا تزول، ولذا جاء الإبانة عنها بالجملة الاسمية؛ دلالة على ثبوت هذه الصفة ودوامها، فكانوا في أمن وأمان، وطمأنينة فما روعوها حق رعايتها، وكانوا مع هذا الأمن والأمان في رغد من العيش، جاءت الإبانة عن هذا المعنى في قوله: ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي: هنيئاً سهلاً، وحالاً ميسوراً، فكان يُحمل إليها ثمرات كل شيء، من البر والبحر.(١)

جاء الحديث عن رغد عيشهم، وسعة رزقهم في قوله: ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ مغايراً عن بناء الجملة التي قبلها، فجيء هنا بالجملة الفعلية؛ إشارة إلى تجدد الرزق الذي يأتيهم رغدا من كل مكان، وتكرر مجيئه عليهم(٢)، وهذا من تمام النعمة، وأدعى إلى ظهورها، مما يوجب شكرها، والمحافظة عليها.

ذكر السعدي في تفسير هذه الآية كلاماً بليغاً، ومعنى جميلاً في تصوير الحياة التي كان يعيشها المشركون في مكة من الأمن والأمان الذي كانوا ينعمون به، ويتقلبون فيه، يقول: ((وهذه القرية هي مكة المشرفة، التي كانت آمنة مطمئنة، لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء، حتى إن أحدهم يجد فيها قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه، مع شدة الحمية فيهم، والنعرة العربية، فحصل لها في مكة: الأمن التام، ما لم يحصل في سواها، وكذلك الرزق الواسع، كانت بلدة ليس زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق، يأتيها من مكان، فجاءهم رسول منهم، يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه، وكفروا بنعمة الله عليهم))(٣).

وفي قوله: " قرية" مجاز عقلي، فهي كقوله: (واسأل القرية)، ذُكرت القرية، ((والمراد أهلها؛ لأن الطمأنينة والأمن، وإتيان الرزق حقيقتها لأهلها، لا لها، يدل على هذا قوله: في الأخير (بما كانوا يصنعون)))(٤)، ولم يقل: صنعت، فالمراد بالقرية أهلها؛ بديل ما أُسند إليها من كفران النعم، والخوف والجوع، فهم المقصودون بالإخبار، وهم المتوعدون بهذا الوعيد.(٥)

---

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٦٤٩/٢،: و: معالم التنزيل: ٨٧/٣ .

(٢) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ١٤٥/٥ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٨٨/٣ .

(٤) التفسير البسيط: ٢١٧/١٣ .

(٥) يُنظر: حاشية محيي الدين زادة على تفسير البيضاوي: ٢٠٣/٣، و: تفسير التحرير والتنوير: ٣٠٥/١٤ .

ثم ذكر – سبحانه – موقف كفار مكة من هذا النعم بقوله: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ فلم تقابل نعمه بالشكر والإيمان، بل جحدت وكفرت بها، وأعظم هذه النعم وأجلها: بعثة محمد – صلى الله عليه وسلم- إليهم.(١)

دل حرف العطف " الفاء" في قوله: " فكفرت" على سرعة كفرهم، وجحودهم نعمة ربهم، فقد سارعوا في تكذيب النبي – صلى الله عليه وسلم- ورسالته، وكفرهم بكل ما جاء فيه ومحاربته، وقد أشار محمد الطاهر ابن عاشور إلى بلاغة هذا الحرف ودلالته، يقول: ﴿واقتران فعل "كفرت" بـ" فاء" التعقيب بعد ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ باعتبار حصول الكفر عقب النعم التي كانوا فيها، حين طرأ عليهم الكفر، وذلك عند بعثة الرسول – صلى الله عليه وسلم- إليهم ﴾.(٢)

جاء الإخبار عن النعم التي كفروا بها بجمع القلة، في قوله: " بأنعم الله"، مع كثرة النعم التي أنعم الله بها على مكة، وكثرة ما كفروا به، وجحدوه، والسرُّ في هذا التعبير؛ ﴿ للإيذان بأن كفران نعمة قليلة أوجب هذا العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة؟! ﴾.(٣)

وفي الآية الواردة في سورة " ص" ذكر – سبحانه- فيها صورة من صور كفر كفار قريش، ومشهد من مشاهد ردهم للرسالة، وسخريتهم بالرسول – عليه الصلاة والسلام-، وذلك في قوله: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾، تضمنت الآية سخريتهم من الرسول – عليه الصلاة والسلام-، واستبعادهم أن يكون رسولاً، وأن يُخص بالقرآن وبالرسالة.(٤)

تم ذكر هذا المعنى من خلال أسلوب الاستفهام في قوله: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾، وهو استفهام إنكار وتعجب(٥)، جاء إنكارهم ﴿ ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد، على ما أوتي به من شرف النبوة بينهم ﴾.(٦)

---

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٦٤٩/٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠٦/١٤ .

(٣) إرشاد العقل السليم: ١٤٥/٥ .

(٤) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٣٠/٤

(٥) يُنظر: التفسير البسيط:١٥٧/١٩ .

(٦) الكشاف: ٣٦١/١٤ .

ومناط هذا الإنكار وباعثه: الظرف في قوله: " من بيننا"، أنكروا أن يُخص رسول الله – صلى الله عليه وسلم- بالرسالة، ونزول القرآن من بينهم، وأهم أكبر منه سناً، وأعظم منه شرفاً، وأكثر منه عددا وعتاداً [1]، وغير ذلك من الدعاوى والمزاعم التي تدل على حقدهم وبعضهم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم-

أبطل – سبحانه- دعواهم، ورد مزاعمهم، وبيّن الباعث الحقيقي لحسدهم لرسول الله، في قوله:﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِيۖ ﴾، والمراد به: القرآن الكريم، الذي أنزله الله على رسوله، وشكهم فيه يقتضي كفرهم به، وإعراضهم عنه[2]، يدل على بطلان دعواهم، وضعف حجتهم: الإضراب في قوله: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِيۖ ﴾، وهو إضراب إبطالي تكذيبي[3]، وقد جاء هذا الإضراب في مكانه، وأدى الغرض من ذكره في هذا المقام.

جاء حرف الجر " في " في قوله: " في شك" بدلالته على الظرفية والاستغراق مشيراً إلى هذا المعنى، فدلَّ على انغماسهم في الشك، كما دل –كذلك – على تمكنه فيهم، فقد أحاط بهم من جميع جوانبهم، إحاطة السوار بالمعصم، فأنى لهم – والحالة هذه - أن يبصروا الحق، ويدركوا الحقائق؟!، ويدركوا شرف الرسول – صلى الله عليه وسلم – بينهم، وشرف المنزَّل عليهم، فقد أحاط بهم الشك، فأعمى بصيرتهم وأبصارهم.

الوقفة الثالثة: دلالة لفظة " الذوق" وأسرارها البلاغية في هذا المقام:

وبعد أن ذكر – سبحانه – أفعال كفار قريش، وسوء صنيعهم، بيَّن عقابهم من خلال لفظة " الذوق"، وفي ذلك مزيد من الدلالات والأسرار المراد تحقيقها، والوصول إليها، وذلك في قوله:﴿ وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾، جاء بناء هذه الجملة وصياغتها في غاية الإحكام، وفي غاية الجزالة والقوة، فجاءت لفظة " الذوق" في هذا المقام فعلاً مضارعاً في قوله: " وتذوقوا"، وفي هذا مزيد من العذاب، ومزيد من الإيلام؛ وذلك أنه عذاب متجدد عليهم، ومستمر بهم، لا يفتر عنهم، وإنما يذوقونه مرة بعد أخرى، يجيء ويذهب؛ ليحسوا مرارته، ويذوقوا ألمه، بخلاف العذاب المتوعدين به في الآخرة في قوله: ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، جاء الحديث عنه بالجملة الاسمية؛ دلالة على ثبات العذاب واستمراره، فهم في عذاب دائم، لا ينفك عنهم، ولا يحول عنهم ولا يزول. [4]

---

(١) يُنظر: التفسير البسيط: ١٥٧/١٩، و: تفسير التحرير و التنوير: ٢١٣/٢٣ .

(٢) يُنظر: البحر المحيط: ٣٧٠/٧ .

(٣) يُنظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢١٤/٢٣ .

(٤) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٢٤٦/١١ .

وفي لفظة " وتذوقوا" استعارة لشدة الإحساس، وقوة الألم، ومما زاد هذا العقاب ألماً وشدة أن المتذوق هو السوء، والمراد به: كل ما يُؤلم، وحسبك من ألم شديد ذوقه، فكيف ستكون ماهيته وشدته؟!، ومعنى الآية: ﴿ذوق السوء في الدنيا من معاملتهم معاملة الناكثين عن الدين، أو الخائنين عهودهم ﴾.(١)

دلت لفظة "الذوق" على شدة العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة، وهو أشد وأنكى، وذلك أن الذوق مقدمة الشيء، ويتلوه الكثير من العذاب: نوعا وكما، وقد جاءت خاتمة الآية مشيرة إلى هذا المعنى في قوله: ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾؛ وذلك أن العطف يقتضي المغايرة، يدل على هذا المعنى قول الواحدي في تفسيره هذه الآية: ﴿﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يريد الآخرة، وهو قطع بإيجاب العذاب إن فعلوا ما نُهوا عنه، كأنه قيل: ولكم عذاب عظيم إن اتخذتم إيمانكم دخلاً، ودُلَّ ما تقدم من النهي على هذا المحذوف ﴾.(٢)

أكد هذه المغايرة، وهذه الشدة: الشوكاني في قوله: ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يقول: ﴿أي مبالغ في العظمة، وهو عذاب الآخرة، إن كان المراد بما قبله عذاب الدنيا ﴾.(٣)

يدل على عظمة هذا العذاب وشدته: تنكير لفظة "عذاب"، ووصفه بالعظيم، تضافر التنكير والوصف بما توافر في كل واحد منهما في الدلالة على عِظَم هذا العذاب وشدته، فأنى لهم أن يطيقوه، و قد ذاقوا بداياته في الدنيا؟! .

وفي الآية الأخرى ذكر – سبحانه – عذابهم من خلال لفظة " الذوق" كذلك، وكانت آية في البلاغة والبيان، وذلك في قوله: ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾، ومعناها – كما يذكر الطبري–: أن الله ﴿أذاق أهل هذه القرية لباس الجوع، خلط أذاه أجسامهم، فجعل الله – تعالى ذكره– ذلك مخالطته أجسامهم بمنزلة اللباس لهم؛ وذلك أن الله سلَّط عليهم الجوع سنين متوالية، بدعاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم– عليهم ﴾.(٤)

وقف مع هذه الآية كثير من المفسرين، وكثير من البلاغيين، في بيان دلالاتها البلاغية، ونكتها البيانية، وإمامهم في ذلك الزمخشري، فيكاد يكون أول من فتق أكمامها، وذكر أسرارها، وجلُّ من جاء بعده يكاد يكون عمله النقل، أو الشرح والبسط، ولبديع ما ذكره في بيان هذه الآية ودقته، عقَّب عليه ابن

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٢٦٩/١٤ .

(٢) التفسير البسيط: ١٨٦/١٣ .

(٣) فتح القدير: ١٩١/٣ .

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٣٨٥/١٤ .

المنير بقوله: ﴿ وهذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر لا الحبر ﴾[1]، وكذلك فعل العلماء من بعده، فقد تناقلوه، وحفظوه له، وأقروا بألمعيته، وفضله، وكل من جاء بعده يكاد يكون عالة عليه، فقد تلقوا كلامه، ودانوا له بالفضل والسبق، وزاده بسطة وبياناً.

ويحار القلم من أين يتحدث عن بلاغة هذه الآية؟!، ومن أين يبدأ؟!، وأنى له أن يبين بلاغة هذا الأسلوب ويوضحه؟! سأتحدث عن هذه الآية من خلال لفظة "الذوق" ، في بيان أثرها ودلالاتها في هذا التركيب، وأثرها في إظهار بلاغة هذا الأسلوب، من خلال الاستعارة التي تضمنتها، فلفظة " الذوق" في قوله: " فأذاقها": استعارة تصريحية تبعية؛ إذ إن حقيقة الذوق: إحساس اللسان بأنواع الطعام والشراب، فهي مستعارة ﴿ للإحساس بالألم والأذى إحساساً مكيناً، كتمكن ذوق الطعام من فم ذائقه، لا يجد له مدفعاً ﴾.[2]

بيد أن الأسرار البلاغية، والنكت البيانية لا تقف عند هذا الحد، ولا تنتهي عند هذا البيان؛ وذلك أن الذي يُذاق هنا لباس الجوع والخوف، وهذا من بديع نظم هذه الآية، وعظيم إعجازها، ولذا ارتبطت لفظة " فأذاقها" هنا باستعارة أخرى في قوله: ﴿ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾، ففي لفظة: " لباس" استعارة أخرى، وهي استعارة تصريحية أصلية، استُعيرت للأحداث والمصائب التي حلَّت بأهل هذه القرية، جاءت هذه الاستعارة لتفيد الإحاطة والشمول، كما يشمل اللباس صاحبه، ويحيط به من جميع جوانبه، ولكن الذي يُلبس هنا ليس ثوباً ولا لبساً، وإنما هو الجوع والخوف، وهذا – أيضاً- من بديع نظم الآية، وعظيم إعجازها، ولذا أضافت لفظة (الذوق) هنا معنى بديعاً على الاستعارة، وحدَّدتْ نوعها، فقد اكتملت بلاغة هذه الاستعارة، وتميزت بلفظة " فأذاقها"، ومن هنا يبرز أثر لفظة " فأذاقها" في هذا الاستعارة، فقد صارت بسببها استعارة مجردة؛ لكونها ﴿ من ملائمات المستعار له، فالإذاقة بمعنى الإصابة، تلائم الأحداث والمصائب، وما علا الوجوه من صفرة، ولا تلائم اللباس ﴾.[3]

إذن فللفظة " الذوق" أثر في هذا السياق، وأثر –كذلك- في تحديد نوع الاستعارة، فبسببها صارت الاستعارة مجردة، فجاءت لفظة " الذوق" هنا لتفيد معنى على هذه الاستعارة، ما كانت لتكون لو خلا

---

(١) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال: ٤٣١/٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠٦/١٤ .

(٣) علم البيان: ٢٠٨، د. بسيوني عبدالفتاح فيود.

النظم منها؛ وذلك أن النظر للمستعار له معتبر هنا، ﴿وهو هنا أبلغ لدلالته على الإحاطة والذوق، ولو نُظر إلى المستعار لُقال: فكساها، فكان يفوت الذوق ﴾.(١)

ومن هنا تتجلى بلاغة لفظة " الذوق" في هذا المقام، وأثرها في الدلالة على إظهار الأثر الذي أصابهم، فصل القول في هذه المسألة الشوكاني، يقول: ﴿إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضرر، وأذاقه غيره، فكانت استعارة مجردة، ولو قال: فكساها كانت مرشحة، وقيل: ترشيح الاستعارة وإن كان مستحسناً من جهة المبالغة إلا أن في التجريد ترجيحاً؛ من حيث إنه روعي جانب المستعار له، فازداد الكلام وضوحاً ﴾.(٢)

وفي مجيء لفظة "الذوق" سر بلاغي آخر له ارتباطه بالاستعارة الأخرى في لفظة " اللباس"، أشار إلى هذا الأمر محمد الطاهر ابن عاشور، يقول: ﴿ولما كان اللباس مستعاراً لإحاطة ما غشيهم من الجوع والخوف، وملازمته أريد إفادة أن ذلك متمكن منهم، ومستقر في إدراكهم استقرار الطعام في البطن، إذ يذاق في اللسان والحلق، ويُحس في الجوف والأمعاء، فاستُعير له فعل الإذاقة؛ تمليحاً وجمعاً بين الطعام واللباس؛ لأن غاية القِرى والإكرام أن يؤدب للضيف، ويخلع عليه خلعة من إزار وبرد، فكانت استعارتان تهكميتان ﴾.(٣)

ومن دلالات هذه الاستعارة وبلاغتها أن فيه تجسيما لمعنى الجوع والخوف، فكان لباساً، ومن بلاغة هذه الآية أن جعلتهم يذوقون هذا اللباس؛ لأثر الذوق، وشدة تأثيره، فهو أعمق أثرا، وأقوى تأثيراً؛ فتزداد حسرتهم، و يعظم عذابهم، ويشتد ألمهم .

ولذا جاءت لفظة " الذوق" في هذا المقام مع الاستعارة الأخرى في لفظة "لباس"؛ للدلالة على الأمرين معا: شدة الإصابة المدلول عليها بلفظة "الذوق"، الدالة على شدة التمكن والقوة، وعلى الإحاطة والشمول، الناتجة من لفظة "اللباس" ودلالاتها، استحق القوم هذا العذاب المضاعف لسوء صنيعهم، وعظيم فظاعته وشناعته ، فقد ﴿أذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع، الذي هو

---

(١) نظم الدرر: ٢٦٥/١١ .

(٢) فتح القدير: ٢٠٠/٣ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠٧/١٤ .

ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن؛ وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم، وعدم شكرهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾.[1]

ومن هنا جاءت الآية بهذه البلاغة، وبهذه الجزالة والقوة؛ إشارة إلى هذا المعنى، ومن بلاغة هذا القول، وعظيم نظمه: أن قال – سبحانه- في الدلالة على هذا المعنى-: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾، دون قوله: (فأذاقها الله طعم الجوع والخوف)، ودون قوله: (فكساها الله لباس الجوع)؛ إذ إن التركيب الأول يفيد شدة الإصابة دون الشمول، كما أن الثاني يفيد الشمول والإحاطة، دون شدة الإصابة، ولكن جاءت الآية بقوله: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾، فأفادت الاستعارة بهذا التركيب الأمرين معا: شدة الإصابة، مع الدلالة على الإحاطة والشمول[2]، فسبحان من هذا كلامه؟! ومن هنا بلغت هذه الآية مبلغ الإعجاز، بأن ﴿ جُعلت الثانية متفرعة عن الأولى، ومركبة عليها، بجعل لفظها مفعولاً للفظ الأول، وحصل بذلك: أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر أحوالهم، وملازمان لهم، وأنهم بالغان منهم مبلغاً أليماً ﴾.[3]

وبعد أن ذكر – سبحانه- عقابهم في قوله: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ بيّن بعد ذلك أن ما أصابهم جزاء ما اقترفته أيديهم في قوله: ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ أي قبل هذا العذاب، وفي مجيء لفظة " يصنعون" فعلاً مضارعاً إشارة إلى تجدد حدوث هذه الأفعال منهم، وتكرر وقوعها، تكرر منهم كفران النعم، حتى صار لهم ذلك طبعاً وديدناً، دلت لفظة " يصنعون" على هذا المعنى، أشار إلى هذه الحقيقة أبو السعود، يقول: ﴿ وفي صيغة الصنعة؛ إيذان بأن كفران نعمه صار صنعة راسخة لهم، وسنة مسلوكة ﴾.[4]

وأما في سورة " ص" فجاءت لفظة " الذوق" في معرض تهديد المشركين بالعذاب؛ جزاء موقفهم المتعنت من الرسول – صلى الله عليه وسلم- ، ومن الرسالة، وذلك في قوله: ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾، وهذا الآية – كما يذكر ابن كثير[5]- تهديد لهم بأنهم سيذوقون هذا العذاب.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٨٨/٣ .

(٢) يُنظر: علم البيان:٢٠٨، د. بسيوني عبدالفتاح فيود .

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠٧/١٤ .

(٤) إرشاد العقل السليم: ١٤٥/٥ .

(٥) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٣١/٤ .

ومن دلالات لفظة " الذوق" في هذا المقام وبلاغتها: أن ذوق هذا العذاب هو الذي سيقطع تلك الافتراءات، ويوقف تلك السخرية من الرسول – صلى الله عليه وسلم-: فسيتوالى قوله: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ سخرية واستهزاء، إلى أن يذوقوا العذاب، ﴿ فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد حينئذ، يعني أنهم لا يصدقون به إلا أن يمسهم العذاب مضطرين إلى تصديقه ﴾.(١)

وفي هذا دلالة على شدة هذا العذاب المعبَّر عنه بلفظة " الذوق"، ففيه إشارة إلى شدة تمكنه فيهم، ووصوله إلى أعماقهم وأجوافهم، بل إلى أفكارهم وعقولهم، فيغير عقائدهم، ويبدل آراءهم، فيوقنون حينها أن الرسول – صلى الله عليهم وسلم- حق، ولكن هيهات هيهات أن يفيدهم ذلك شيئاً، أو أن يخفف عنهم شيئاً من العذاب.

ومن دلالاتها أيضاً: أنه فيها إشارة إلى فرط حماقتهم وغبائهم، ﴿ فهم لجهالتهم لا يبين لهم النظر، وإنما يبين لهم مباشرة العذاب ﴾.(٢)

وفي لفظة " لما" في قوله: ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ إشارة إلى قرب حدوث هذا الأمر، فهم لم يذوقوه بعد، ولكنهم شارفوا ذوقه، وقاربوه، ﴿ وقد ذاقوا عذاب السيف يوم بدر، بعد نزول هذه الآية بأربع سنين ﴾.(٣)

ولذا فهم يقولون ما يقولون؛ لأنهم لم يذوقوا العذاب بعد، ﴿ ولو ذاقوه لانحلت عرى عزائمهم، وصاروا أذل شيء وأحقره، وأدناه وأصغره ﴾.(٤)

ومن هنا تتجلى بلاغة لفظة " الذوق" في هذا المقام؛ وذلك أن ذوق العذاب مجرد ذوقه غيّر مواقفهم، وبدل أفكارهم، دلالة على شدته وقوته، وما هو إلا ذوق، فكيف وهم خالدون مخلَّدون في هذا العذاب ما دامت السماوات والأرض؟! ومن هنا تتجلى بلاغة هذه اللفظة، ويظهر إعجازها في هذا المقام.

المقام التاسع: في مقام العذاب في الدنيا:

وردت لفظة " الذوق" في هذا المقام في ستة مواضع من القرآن الكريم، وهذه المواضع هي:

١. في سورة الأنعام، في قوله – تعالى- : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

---

(١) الكشاف: ٣٦١/٤ .

(٢) المحرر الوجيز: ٤٩٤/٤.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٢١٥/٢٣ .

(٤) نظم الدرر: ٣٣٦/١٦ .

٢ . في سورة السجدة، في قوله – تعالى- : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

٣ . في سورة الزمر، في قوله – تعالى-:﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

٤ . في سورة فصلت، في قوله – تعالى- : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

٥ . في سورة القمر، في قوله – تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾

٦. في سورة القمر، في قوله – تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ﴾

وفيما يأتي وقفات مع بلاغة القرآن الكريم في استخدام لفظة " الذوق" في هذا المقام:

الوقفة الأولى: جميع هذه السور الواردة فيها لفظة " الذوق" في هذا المقام سور مكية[١]، ومن هنا جاءت هذه الآيات متوافقة مع خصائص آيات العهد المكي: الموضوعية والأسلوبية، كما يتضح ذلك جليا في الآيات السابقة كلها، ففيها حديث عن الأمم السابقة، وبيان ما حلَّ بها من العذاب، لما كذبت رسل ربها، وفي ذلك تذكير لكفار قريش، وتعريض بهم، وبيان أنهم ليسوا بمنأى ولا منجى من هذا العذاب، إن استمروا على ما هم عليه من التكذيب والكفر، فهم على خطا من قبلهم من الأمم سائرون، كما تجلى في هذه الآيات الخصائص الأسلوبية للآيات المكية، ففيها القوة والجزالة، وفيها الإيجاز، وقوة الخطاب، وقوة الإيقاع، ومن دلائل القوة والجزالة فيها: ورود لفظة " الذوق" فيها في هذا المقام.

الوقفة الثانية: تنوعت صيغة لفظة " الذوق" في هذا المقام؛ على حسب المعنى المتحدث عنه، والغرض المراد تحقيقه، فجاءت في سورة "الأنعام" فعلاً مضارعاً في قوله:﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ﴾ لتفيد معنى التجدد والاستمرار، وذلك هو المتوافق مع معنى الآية ومضمونها، فالآية تهديد ووعيد لكفار قريش، والأبلغ في هذا التهديد أن يكون متجدد الحدوث، متكرر الوقوع، يحدث لهم الفينة بعد الأخرى.

وثمة قراءة أخرى للفظة " الذوق"، قُرئت: " ونذيق" بنون العظمة[٢]، تعظيماً له – سبحانه- وبيانا لقدرته فيما حلَّ بهم، وبيان ما أصابهم، وتكمن بلاغة هذه القراءة أن فيها التفاتاً إلى أسلوب المتكلم؛ إشارة إلى عظمته – سبحانه-، وعظيم قدرته بأن أذاقهم السوء بما كانوا يصنعون. [٣]

---

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١٩٣/١ .

(٢) يُنظر: تفسير البحر المحيط: ١٥٦/٤ .

وفي الالتفات تهويل للعذاب، ومبالغة في التحذير منه، فهو عذاب جبار السموات والأرض، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء[١].

وما ذُكر في الآية من الوعيد ليس مقصوداً ولا محصوراً، بل هي أمثلة لهذا الوعيد، وذلك التهديد، يدل على ذلك: قول ابن عطية الأندلسي: ﴿هذا إخبار يتضمن الوعيد، والأظهر من نسق الآيات أن هذا الخطاب للكفار الذين تقدم ذكرهم، وهذه كلها أمثلة، لا أنها هي المقصود، إذ هذه وغيرها من القحط، والغرق، وغير ذلك داخل في عموم لفظ " أَوْ يَلْبِسَكُمْ " ﴾.[٢]

جاءت لفظة " الذوق" في سورتي: " السجدة"، و" فصلت": فعلاً مضارعاً، وبصيغة مختلفة عما تقدمها، فجاءت في سورة السجدة، بصيغة: " وَلَنُذِيقَنَّهُم "، وفي سورة فصلت بصيغة:" لِّنُذِيقَهُمْ "، دلت لفظة " الذوق" بهذه الصيغة على التجدد والاستمرار –كذلك–، وقد تم توظيف هذه الدلالة، وهذه الصياغة في بيان شدة العذاب الذي حلَّ بهم؛ كما يتجلى ذلك في سورة "فصلت" عاقبهم الله بأن أرسل عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات، وهي الريح شديدة الهبوب، الباردة شديدة البرودة، ولذا فهي تحرق، وتهلك بشدة بردها؛ لأن لها صرصرة، وهو الدَّوي من شدة هبوبها، وسرعة تنقلها[٣]، ولذا فهذه الريح التي أُرسلت عليهم كانت ﴿متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قوتهم، وكانت باردة شديدة البرد جداً ﴾.[٤]

ولذا فمجيء لفظة " لنذيقهم" فعلاً مضارعاً بدلالته على التجدد والاستمرار توافق مع طبيعة الريح، وطبيعة فعلها بهم، كما أنه الأظهر في شدة هذا العذاب، ولذا فهي تهلك وتحرق، كما أنها تنتقل من مكان إلى مكان، وتجمع وتقبض، وكلها أفعال متجددة الحدوث، مستمرة في أثرها وتأثيرها بهم، ومن هنا جاءت لفظة " الذوق" في هذا المقام فعلاً مضارعاً دلالة على هذا المعنى، وتحقيقاً لهذه الأغراض.

وفي سورة "السجدة" تم تأكيد هذه الصياغة بنون التوكيد الثقيلة في قوله: " وَلَنُذِيقَنَّهُم "، وفي ذلك مزيد من التأكيد على ما تضمنته هذه الصيغة من معانٍ، وتحقيق لها، إشارة إلى أن دلالة هذه الصيغة

---

(٣) يُنظر: المصدر السابق: ١٥٦/٤ .

(١) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٣٦٨/٣ .

(٢) المحرر الوجيز: ٣٠٢/٢ .

(٣) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٩/٨، و: تفسير التحرير والتنوير: ٢٥٩/٢٤ .

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١٠٠/٤ .

متحققة لا محالة، واقعة بهم كما أخبر – سبحانه – بذلك، فقد نفذ حكمه، وحلَّ قضاؤه، ولا راد له – سبحانه–، فإذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون.

" جاءت فيها لفظة "الذوق" في سورة "القمر – في كلا الموضعين– بصيغة فعل الأمر "فذوقوا"، وهذه الصيغة هي الأنسب والأبلغ في هذا المقام؛ وذلك أن هذا القول جاء مصاحباً للحظة عذابهم في قوله: ﴿ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾، توافق القول مع الفعل، وكذلك قوله – تعالى–: ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ﴾، توافق القول مع إهلاك القوم بالطمس، وبالعذاب الذي صبَّحهم، وفي مجيئه بصيغة الأمر " فذوقوا" توبيخ لهم وتقريع لحظة وقوع العذاب[1]، كما أن فيه تأكيداً لهذا العذاب، وأنه حلَّ بهم ما تُوعدوا به على ألسنة رسلهم[2]، ويتحقق هذا التقريع، ويتجلى هذا التأكيد أن يُساق لهم، ويقال لهم بصيغة الأمر؛ فذلك أظهر وأبين، ومن هنا جاءت لفظة " الذوق" في هذا المقام بصيغة الأمر؛ دلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه، والله أعلم بمراد كتابه .

جاءت لفظة "الذوق" في سورة "الزمر" بصيغة فعل الماضي " فأذاقهم" في قوله – تعالى– : ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾، إشارة إلى أن عذابهم مضى وانقضى، فقد حلَّ بهم عذاب ربهم، فهلكوا، فصاروا في الغابرين، وصاروا خبرا من الأخبار، تُروى حكايتهم، ويُذكر خبرهم؛ عظة وعبرة للمتأخرين، ففي صيغة المضي في لفظة الذوق، إشارة إلى أنهم قضوا نحبهم، وهلكوا عن بكرة أبيهم، ولم يبق منهم إلا أثرهم؛ دلالة على أنهم كانوا فبادوا، فهي أمة سادت ثم بادت، ومن ثم جاء الحديث عنهم بالفعل الماضي إشارة إلى هذه المعاني كلها، والله أعلم.

ولذا فتنوع صيغ لفظة " الذوق" في مقام عذاب الأمم وهلاكها؛ إشارة إلى تنوع العذاب الذي حلَّ بهم، فقد تنوع هذا العذاب وتعدد، ومن ثم جاء التنوع في الصيغة دلالة على هذا الأمر.

الوقفة الثالثة: مع الأسرار البلاغية في مجيء لفظة " الذوق" في هذا المقام، ومن أسرارها ما يأتي:

في لفظة الذوق إشارة إلى قوة العذاب، وإلى كراهية هذا الأمر الذي حلَّ بهم، فقد ذاقوا عصصه، فتجرعوه ولم يستسيغوه؛ وذلك أن الذوق من أقوى الحواس التي يحصل بها الإدراك والإحساس، وقد

---

(١) يُنظر: المحرر الوجيز: ٢١٩/٥ .

(٢) يُنظر: تفسير البحر المحيط: ١٨٠/٨ .

وردت لفظة " الذوق" في لغة العرب: فيما يُستكره ولا يطاق، ومن ذلك قولهم: ﴿أذقتُ فلاناً العلقم، تريد كراهية شيء صنعته به، ونحو ذلك ﴾.[1]

ومن بلاغة القرآن، وبديع نظمه: أن المذاق في آية الأنعام: هو البأس، في قوله تعالى:﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ ، والمراد بالبأس: الموت، والقتل، والشدة بأنواعها[2]، فيكون المراد بإذاقتها: حصول الألم البالغ في الإيصال، وشدة الإحساس، وتأثيره بهم، وتضررهم منه، وقد ورد الحديث عن إدراك ألم الموت بلفظة " الذوق" كثيراً في القرآن الكريم، وفي لغة العرب، ومن ذلك: قوله – تعالى-: في سورة آل عمران ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾، ومنه قول الشاعر:

أذقناهم كؤوس الموت صِرفاً وذاقوا من أسنتنا كؤوسا [3]

ومن الأسرار البلاغية في ورود لفظة " الذوق" في مقام عذاب المكذبين في الدنيا: الإشارة إلى قلة هذا العذاب، وأنه نزر قليل، وشيء خفيف لما ينتظرهم في الآخرة، فالذي أصابهم في الدنيا يعد نزراً يسيراً، كما أن الذائق للطعام لا ينال منه شيئاً كثيراً بالنسبة لمن يأكله ويلتهمه، فكذلك عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة، فما هو إلا مقدمة له، وتعريف به، وقد أشارت الآية التي في سورة " الزمر" إلى هذه الحقيقة، وهي قوله:﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ وكذلك الآية التي في سورة " فصلت"، وهي قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ فهاتان الآيتان صريحتان في الدلالة على هذا المعنى في قوله:﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُۚ ﴾، وقوله: ﴿ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰۖ ﴾، والمعنى: ﴿أن الذي أعده الله – جل حلاله- لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا ﴾[4]، فهو أخزى وأكبر كماً وكيفاً؛ لشدته، وسرمديته، ولذا فقوله: ﴿ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰۖ ﴾ امتداد للعذاب الذي نالهم في الدنيا؛ ﴿وذلك أن انتظار الفرج مما يسلي، قال معلماً أن عذابهم دائم على سبيل الترقي إلى ما هو أشد، وأكده لإنكارهم إياه ﴿ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ ﴾ الذي انتقلوا إليه بالموت، ويصيرون إليه بالبعث"أَكْبَرُۚ " من العذاب الذي أهلكم به في الدنيا، فالآية من الاحتباك: ذكر "الخزي أولاً دليل على إرادته ثانياً، والأكبر ثانياً دليل على الكبير أولاً،

---

(١) المحرر الوجيز: ٣٠٢/٢ .

(٢) يُنظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٨٤/٧ .

(٣) يُنظر: تفسير البحر المحيط: ١٥٦/٤ .

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٥٥/٤ .

وسره: تغليظ الأمر عليهم بالجمع بين الخزي، والعذاب؛ بما فعلوا برسله – عليهم السلام- ﴾[1]، ومن هنا جاءت لفظة " الذوق" في هذا المقام؛ للإشارة إلى قلة عذاب الدنيا، بالنسبة إلى ما ينتظرهم من العذاب في الآخرة.

كما تضمنت لفظة " الذوق" في هذا المقام تهديداً لهم، ووعيداً لما ينتظرهم لو كانوا يعلمون، ولكنهم لشدة إعراضهم، وعظيم غفلتهم لا يعلمون، وبذلك خُتمت الآية في سورة الزمر في قوله – تعالى-: ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾، والمعنى: أنهم لو كانوا عالمين لعلموا أن عذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا، فيرتدعوا ﴾.[2]

وثمة سرٌّ آخر مرتبط بما تقدمه، فإذا تقرر أن عذاب الدنيا قليل لما ينتظرهم من العذاب السرمد في الآخرة، وأنه خفيف لما ينتظرهم من العذاب الشديد، والنكال الكبير في الآخرة، ومع ذلك فالعذاب الخفيف القليل المعبَّر عنه بلفظة " الذوق" أهلكهم، واستأصل شأفتهم، وأبادهم عن بكرة أبيهم، وقضى عليهم، ففي ذلك تعظيم للعذاب، وتعظيم –كذلك- للمعذِّب، وهو الله – عزَّ وجلَّ- القادر على إهلاكهم بأقل الأسباب، وبشتى السبل، ولذا جاءت الإشارة إلى هذا المعنى في صدر آية الأنعام في قوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾، جاء هذا الافتتاح بهذا الأمر؛ لبيان قدرته – سبحانه – على إهلاكهم، متى شاء، وبما شاء، وكيف شاء، ومن هنا جاء ذكر هذه الحقيقة من خلال أسلوب القصر[3]، ومع ذلك فليس المراد من هذا القصر: ﴿ الإعلام بقدرة الله – تعالى-؛ فإنها معلومة، ولكن المقصود: التهديد، بتذكيرهم بأن القادر من شأنه أن يُخاف بأسه، فالخبر مستعمل في التعريض ﴾[4]، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

المقام العاشر: في بيان طبيعة الإنسان:

من المقامات التي وردت فيها لفظة " الذوق": الحديث عن بيان طبيعة الإنسان، وبيان ما جُبل عليه، ورد ذلك في سبعة مواضع من القرآن الكريم، وهذه المواضع هي:

١. في سورة يونس، في قوله – تعالى- : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

---

(١) نظم الدرر: ١٦/٤٩٤.

(٢) التفسير البسيط: ١٩/٣٩٨ .

(٣) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٣/١٤٣ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير: ٧/٢٨٣ .

٢. في سورة هود، في قوله – تعالى- : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

٣ . في سورة الروم، في قوله – تعالى- : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

٤ . في سورة الروم، في قوله – تعالى- : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

٥ . في سورة فصلت، في قوله – تعالى- : ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

٦ . في سورة الشورى، في قوله – تعالى- : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

وفيما يأتي وقفات مع دلالات مجيء لفظة " الذوق" في بيان طبيعة الإنسان في حالتي السراء والضراء.

الوقفة الأولى: أن جميع سور هذه الآيات الواردة في بيان طبيعة الإنسان نازلة في العهد المكي[1]، ولهذا الأمر دلالة يحسن الوقوف معها، وبيان أسرارها؛ وذلك أن هذه الآيات تكشف حقيقة الإنسان، وتبين طبيعته في العهد المكي، الذي كفر بربه، وأعرض عنه، ولم يؤمن به، فهو لم يؤمن بكتاب منزَل، ولا برسول مرسل، ولذا فهي تبين طبيعة هذه النفوس، وما جُبلت عليه، كما أنها تحكي موقف كفار قريش في حالتي السراء والضراء، ولذا فآية الواردة في سورة " يونس"، وهي قوله – تعالى-: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ نازلة في كفار قريش، وسبب نزولها: ﴿ أنه – عليه الصلاة والسلام – دعا على أهل مكة بالجدب، فقحطوا سبع سنين، فأتاه أبو سفيان، فقال: ادع لنا بالخصب، فإن أخصبنا صدقنا، فسأل الله لهم، فسقُوا، ولم يؤمنوا ﴾.[2]

---

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١٩٣/١ .

(٢) تفسير البحر المحيط: ١٤٠/٥ .

وهذه الآية – وإن كانت تخص كفار قريش، ونزلت فيهم – إلا أ، العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، ولذا فلفظة "الناس" في الآية ﴿ تتناول من العاصين من لا يؤدي شكر الله – تعالى- عند زوال المكروه به، ولا يرتدع بعد ذلك عن معاصيه، وذلك في الناس كثير ﴾.(١)

ومن هنا جاءت هذه الآيات في العهد المكي؛ لأنها تتحدث عن كفار قريش أولاً، كما أنها تتحدث عن طبيعة الإنسان، الذي جحد نعمة ربه، وكفر به، الذي يعرفه في الضراء، وينساه في السراء، الذي يؤمن به إن ركب في الفلك، وفي البر يعرض عنه، ويكفر به، فالمشركون – كما ذكر الله عنهم في العهد المكي -:﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]، ومن هنا جاءت هذه الآيات لتبين طبيعة الناس الذين عاشوا في هذه الحقبة الزمنية في عهد النبوة الأولى، في العهد المكي، وبيان ما جُبلت عليه هذه النفوس من الكفر والعناد، والإقبال في ساعة الشدة، والإعراض في ساعة الرخاء.

الوقفة الثانية: وردت لفظة " الذوق" في الإخبار عن طبيعة الإنسان بصيغة الماضي، في المواضع كلها، وهذه الصيغ، هي: " أذقنا، أذقناه، أذاقهم"، والحكمة في ورود لفظة " الذوق" بهذه الصياغة ظاهرة؛ وذلك أنها تتحدث عن الإنسان في حالين: في حالة الرخاء، وفي حالة الشدة، فهي تتحدث عن الإنسان من خلال مواقف سابقة، فهو حين ينعم الله عليه بالخير والرخاء والصحة فإنه يعرض، وينسى ربه، وحين يسلبه ذلك كله، ويبتليه بالشر والشدة، وبالمرض والفقر فإنه يدعو ربه، ويقبل عليه، فهي حالات للإنسان يتقلب فيها، وهو – سبحانه – يخبر عن الإنسان في هذه الآيات عما وقع منه، وما صدر منه قبل نزول هذه الآيات، ولكن هذه هو حاله من قبل ومن بعد، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فجاءت لفظة " الذوق" فعلاً ماضياً؛ إشارة إلى تكرر حدوث هذا الأمر منه قبل نزول هذه الآيات، ولذا فهي تحكي واقعه، وتبين طبيعته، كما أن فيها – حين جاءت بالفعل الماضي- شهادة عليه، وتسجيلا عليه ذلك الأمر، وأن هذا ديدنه الذي صدر منه، وتخلق به، فهي شهادة عليه بذلك، وازدراء به، وحطٌّ من شأنه أن كانت هذه طبيعته، وتلك سجيته.

كما أن مجيئها بصيغة الماضي إشارة إلى تحقق صدور هذه الأفعال المشينة من الإنسان، فهي جبلة جُبل عليها، فلتحقق وقوعها، ولشدة كفر الإنسان، وجحوده نعم ربه جاء الإخبار بها بالفعل الماضي؛ إشارة إلى تحقق وقوعها، وأن هذه المواقف لا انفكاك لهم عنها، ولا خلاص لهم منها، فأما من نزلت فيهم هذه

---

(١) المحرر الوجيز: ١١٢/٣ .

الآيات فحدث ذلك منهم، وأما المتأخرون من الكافرين فهم على خطا المتقدمين سائرون، وشواهد ذلك في هذا العصر كثيرة، لا تعد ولا تحصى، أشار إلى هذا الأمر أبو حيان الأندلسي، يقول: ﴿ تجد الإنسان يعقد عند مس الضر التوبة، والتنصل من سائر المعاصي، فإذا زال عنه رجع إلى أقبح عاداته ﴾.(١)

الوقفة الثالثة: من الأمور اللافتة في هذه الآيات أنها تتحدث عن الخير والشر الذي يصيب الإنسان في الحياة الدنيا بأسلوب بليغ، وأدب جم مع الله – سبحانه وتعالى-، فمن يتأمل هذه الآيات يجد أن الخير والرحمة التي تنال الإنسان في آخرته ودنياه أن الخير فيها جاء مسنداً إلى الله – سبحانه وتعالى-، بخلاف الشر والضر والسوء وكل ما يصيب الإنسان مما يحزنه ويغمه فلم يُسند إليه – سبحانه-، تأكيداً ومصداقاً لقوله – عليه الصلاة والسلام-: "والشر ليس إليك"(٢)، ومن الدلائل على ذلك ما يأتي: في سورة " يونس" يقول – سبحانه-: ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، أشار أبو السعود إلى هذا الأمر، يقوله: ﴿ وإسناد المساس إلى الضراء بعد إسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية، كما في قوله: ﴿ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠] ﴾.(٣)

وممن أشار إلى هذا الأمر كذلك: البقاعي يقول – في تفسيره لآية الروم، وهي قوله –تعالى-: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، يقول: ﴿ مسنداً الرحمة إليه؛ تعظيماً للأدب، وإن كان الكل منه ﴾(٤)، ويقول في موضع آخر: ﴿ فقال مسنداً إلى نفسه الخير، بعد أن ذكر الشر ولم يسنده إليه؛ تعليماً للأدب، معبراً بمظهر العظمة، تنبيهاً على أن ذلك من جليل التدبير ﴾(٥)

وثمة ارتباط بين ورود هذه الآيات بهذه الطريقة، وبهذا الأسلوب، وبهذا الأدب مع الله – سبحانه وتعالى- وبين الحديث عن لفظة " الذوق" في هذا المقام، فهي تتحدث عن طبيعة الإنسان في السراء

---

(١) تفسير البحر المحيط: ١٤٠/٥.

(٢) ورد ذلك في جزء من حديث طويل، جاء فيه: " واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك". يُنظر: صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب: ما وري فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم الحديث: ٧٧١ .

(٣) إرشاد العقل السليم: ١٣٣/٤ .

(٤) نظم الدرر: ٩٢/١٥.

(٥) المصدر السابق: ٢١٧/١٧.

والضراء، وفي بيان موقفه مع ما يصيبه في شتى المواقف الحسنة منها والسيئة، وفي مجيء هذه الآيات بهذه الطريقة إشارة بالغة إلى أن ما أصابهم من سوء فمن أنفسهم، وبما كسبت أيديهم، فعليهم أن يراجعوا أنفسهم، ويتوبوا إلى ربهم، لا أن يكفروا ويعرضوا، فقد أغدق عليهم – سبحانه – نعمه، وحفظهم، ونالهم منه كل خير ورحمة، فما بال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً؟! فكيف يعرضون عن ربهم، ويكفروا به وقد تحنن إليهم بالنعم، ورزقهم من كل خير، وأمدهم بكل مافيه فلاحهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة؟!، وأما السوء الذي نالهم، ولحق بهم، فمن أنفسهم، ومن سوء مواقفهم، ومن هنا جاءت الآيات بهذه الطريقة؛ لتلفتهم إلى هذه الحقيقة، وتدلهم إلى الحق والصواب.

وثمة ملحظ آخر في هذه الآيات له علاقة بما تقدمه، وقريب منه، وهو: أن النعم التي تنالهم من الله: أنها محض تفضل منه – سبحانه – وتكرم، بخلاف ما يصيبهم من السوء والشر فبما كسبت أيديهم، ومن الآيات الدالة على هذا الأمر قوله – تعالى- في سورة الروم ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦ ﴾، أدرك بعض المفسرين هذه الحقيقة، وأشاروا إليها، يقول أبو حيان الأندلسي – في تفسير هذه الآية-: ((وحين ذكر إذاقة الرحمة لم يذكر سببها، وهو: زيادة الإحسان والتفضل، وحين ذكر إصابة السيئة ذكر سببها، وهو العصيان))[1]، وممن أشار إليها -كذلك-: البقاعي يقول – عند معنى قوله – تعالى - ﴿ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾-: ((لم يذكر الله – تعالى – ما يكون سبباً لإذاقة الرحمة، وذكر سبب إصابة السيئة إياهم،؛ لأن الأول تفضل من الله – تعالى- ورحمة محضة، لا يقتضيها شيء من أعمال العبد، بخلاف الثاني فإنه مقتضى العدل، فإنه – تعالى- يجازي المعصية بما يماثلها من العقوبة)).[2]

ولعل الحكمة في ذلك أن يعرف الناس فضل ربهم عليهم، وأنه يبادرهم بالفضل، ويسبغ عليهم نعمه، وأن ما يصيبهم من السوء والشر فبما قدمت أيديهم، ويعفو عن كثير، فهذا دافع لهم إلى شكره، والإيمان به، لا الجحود والكفران، فأولى بهم أن يلوموا أنفسهم، ويراجعوا مواقفهم، وينفكوا عن الكفر والإعراض، ويدخلوا في دين الله أفواجاً، ولكن ذلك لم يحصل منهم، ومن هنا جاءت هذه الآيات لتبين طبيعة هذا الإنسان الجاحد المتغطرس، ولذا استحق عقاب ربه المعبر عنه في هذه الآيات بلفظة "الذوق".

---

(١) تفسير البحر المحيط: ١٦٩/٧.

(٢) حاشية محيي الدين زاد على تفسير البيضاوي: ٢٨/٤.

الوقفة الرابعة: المتأمل في الآيات التي تتحدث عن طبيعة الإنسان، وبيان ما جُبل عليه يجد توافر أدوات التوكيد فيها على تنوعها، وفي تنوعها وتوافرها سرٌّ بلاغي مراد تحقيقه وتقريره في هذا المقام، ومن هذه الأدوات:" إنَّ" في قوله – تعالى- في سورة يونس -: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ – بعد أن ذكر حقيقة الإنسان، وطبيعته في حالتي السراء والضراء في قوله: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ ﴾، ومن أنواع التوكيد الآيات: القسم الوارد في سورة هود، في قوله – تعالى-: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ ﴾، وكذلك في قوله:﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ ﴾، وكذلك في قوله:﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾، وكذلك في سورة فصلت، في قوله: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾، وقوله:﴿ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾، وقوله:﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾، وفي قوله – كذلك-:﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ ، وكذلك قوله – في سورة الشورى-:﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ ﴾، وفي قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ۚ ﴾، وثمة أسرار بلاغية مراد تحقيقها وتقريرها في مقام الحديث عن طبيعة الإنسان، وما جُبل عليه من التقلب في المواقف عند تغير الأحوال، وتقلب النعم بين يديه، ولا يخفى ما لهذا الأسلوب من البلاغة والوكادة، فهو يجعل المعنى المتحدَّث عنه مقرراً ثابتاً في ذهن المخاطب؛ لِما يتضمنه من الإحكام والقوة، أشار إلى هذا المعنى العلوي، بقوله – في بيان أسرار التوكيد -: « ولا يخفى موقعه البليغ ، ولا علو مكانه الرفيع، وكم من كلام هو عند التحقيق طريد حتى يخالطه صفو التأكيد، فعند ذاك يصير قلادة في الجيد، وقاعدة في التجويد »[1]، ثم ذكر مفهومه والغرض منه قائلاً : «واعلم أن التأكيد تمكين الشيء في نفسه، تقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك، وإماطة الشبهات عما أنت بصدده، وهو دقيق المأخذ، كثير الفوائد » .[2]

ولذا فخلف هذا التأكيد كثير من الأسرار، والنكت البلاغية، التي جاء بها، وضمَّها بين برديه، انقسم التوكيد في هذه الآيات قسمين: قسم كان الباعث فيه مراعاة حال المخاطب، فيأتي الخبر فيه بناء على حال المخاطب، وهو ما يذكره البلاغيون في بيان أضرب الخبر، الذي يأتي فيه الخبر مطابقاً لحال المخاطب[3]، ومن شواهد التوكيد لهذا الغرض في هذه الآيات التي تتحدث عن طبيعة الإنسان في السراء والضراء: قوله –تعالى-: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ ففي التوكيد إشارة من طرف خفي إلى إنكار

---

(١)الطراز : ٢٨٧ .

(٢) يُنظر: الطراز : ٢٨٧ .

(٣) يُنظر: الإيضاح: ٢٨.

كفار قريش ليوم البعث، الذي يتم فيه الجزاء والحساب، فرد عليهم – سبحانه – إنكارهم هذا بقوله: ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ فجاء هذا التوكيد؛ ليقتلع هذا الاعتقاد الخاطئ، مبيناً أن الملائكة تحصي عليهم أقوالهم، وأفعالهم، وأنهم محاسبون عليها في الآخرة، ولذا فالجملة المؤَكَّدة ﴿إعلام بأن ما تظنونه خافياً مطوياً لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم ﴾[1]، أشار محمد الطاهر ابن عاشور إلى سرِّ هذا التوكيد وبلاغته، يقول: ﴿ وتأكيد الجملة؛ لكون المخاطبين يعتقدون خلاف ذلك، وهو إنذار بالعذاب عليه، وهذا يستلزم علم الله – تعالى- بذلك ﴾. [2]

جاء بناء الجملة متوافقاً مع دلالتها على التهديد والوعيد، فجاءت لفظة " يكتبون" فعلاً مضارعاً؛ دلالة على التجدد والاستمرار؛ وذلك لتجدد هذه الكتابة، وتكرر حدوثها؛ لتكرر أسبابها، وتجدد حدوث المكر الصادر منهم، فهذا دأبهم، وذلك ديدنهم، أشار أبو السعود إلى بلاغة هذه الجملة ودلالتها، يقول: ﴿ وصيغة الاستقبال في الفعلين؛ للدلالة على الاستمرار التجددي، والجملة تعليل من جهته – تعالى- لأسرعية مكره – سبحانه-، وفيه من المبالغات ما لا يوصف، وتلوين الخطاب بصرفه عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- للتشديد في التوبيخ ﴾. [3]

ومن شواهد التوكيد في الآيات التي جاءت مراعاة لحال المخاطب: قوله – تعالى- في سورة فصلت: ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾، فجاء التوكيد في قوله: " فَلَنُنَبِّئَنَّ " وفي قوله: " وَلَنُذِيقَنَّهُم " إشارة إلى ما في نفوسهم من إنكار البعث والجزاء، والحساب على أعمالهم، وعلى مواقفهم التي كانت منهم في الدنيا، ومنها: إعراضهم عن ربهم في حالة السراء والرخاء، فجاء التوكيد؛ لتثبيت هذا الأمر، ويبين خطأ معتقدهم، وسوء أفكارهم، وفيه من التهديد مافيه، ومن هنا تم تأكيد هذه الأفعال؛ تحقيقاً لثبوتها، وأنها واقعة لا محالة، وهو – سبحانه- يهدد من كان هذا عمله واعتقاده في الدنيا، بأن هذا مصيره، وعقابه في الآخرة. [4]

ومن الإجحاف ببلاغة أسلوب التوكيد: أن تُختصر حِكمه، وتُحصر بواعثه في مراعاة حال المخاطب، فهذا وإنْ كان حقاً إلا أنه جزء من الحِكَم والأسرار لأسلوب التوكيد التي يأتي التوكيد من أجلها، دون حصره والاكتفاء بها، ودون النظر في دقائق هذا الأسلوب، والغوص في أسراره، أشار إلى هذه الحقيقة

---

(١) الكشاف: ٢/٢٣١ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ١١/١٣٤ .

(٣) إرشاد العقل السليم: ٤/١٣٣ .

(٤) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/١٠٩ .

وقررها الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى، مبيناً أن أغراض التوكيد أكبر وأكثر من أن تُحصر في هذه الدائرة الضيقة، يقول: « وأما دواعي التوكيد وأغراضه فقد ضاق صدري بحديث المتأخرين حينما أداروه حول مواجهة إنكار المخاطب التحقيقي أو الاعتباري، وكأن جواب أبي العباس المبرد على سؤال الكندي المتفلسف كان محيطاً بدواعي التوكيد وأسراره في هذه اللغة فجاء كلامهم ترديداً أو شرحاً لهذا الجواب، وهذا قصور كثير في فهم هذه الخصوصية التي هي من أدق الخصائص البلاغية وأكثرها صلة بالحس والشعور، وأكثرها شيوعاً في الكلام كله ».[1]

ولذا فجزء كبير من حِكم هذا الأسلوب وبلاغته تنبع من الخبر ذاته؛ إشارة إلى أنه جدير بالاهتمام، ولفت الأنظار إليه، ومن ثم يأتي توكيده إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه، وقد ذكر أبو موسى هذه الأغراض، وفصل القول فيها تفصيلاً، فذكر: « أن التأكيد قد يكون لتحقيق المعنى عند المتكلم، ومنها: إماطة الشبهة لغرابة الخبر وحاجته إلى التقرير والتحقيق ، وقد يكون التوكيد مظهراً لتعلق النفس بالخبر واهتماماً به ، وأنه جدير عندها بالقبول والتحقيق ، وقد يكون التوكيد لمواجهة تطلعات النفس، وحسم أمالها وأطماعها، وقد يكون لتقرير وعد الله وتثبيته حتى تزداد النفوس اطمئناناً إليه، ووثوقاً به، فلا تلتفت إلى أماني الشيطان ووعده لأوليائه، وقد يتجه المتكلم إلى تصوير ما في نفوس الآخرين من خواطر وأفكار فيأتي تصويره في عبارات مؤكدة ليشير بهذا إلى أن هذه الخواطر والأفكار متقررة في النفوس ومتمكنة منها» .[2]

وهذا هو القسم الثاني من أغراض التوكيد في هذه الآيات، وجلُّ التوكيد الوارد فيها كان لهذا الغرض، ومن هنا برزت أدوات التوكيد بروزاً ظاهراً في الآيات التي تتحدث عن طبيعة الإنسان، فلم يكن المخاطب شاكاً بها أو متردداً، بَلْهَ أن يكون جاحداً لها، أو منكراً بها، وإنما جاء التوكيد فيها؛ للنظر لقيمة الموضوع المتحدث عنه، وأنه جدير بالاهتمام والتأكيد؛ إشارة إلى أن طبيعة الإنسان المتقلبة بين الخير والشر، في السراء والضراء، والصحة والمرض، وما يعقبها من الإقبال والإدبار، والكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار بها ومن ثَم جحودها، دلالة على أن هذا الأمر حقيقة مقررة، وواقع لا يملك عنه فراراً ولا انفكاكاً، ولا يسعه إلا الإقرار به، هذه هي طبيعته، وذلك هو حاله؟

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٤١٣ .

(٢)البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٤١٤ .

ولذا فأغلب الأسرار البلاغية للتوكيد في هذه الآيات منظور فيها إلى الخبر نفسه بما تضمنته، بغض النظر عن حال المخاطب، ومن الشواهد على ذلك: قوله – تعالى-: ﴿ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ ﴾، وقوله: ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ ﴾، وقوله: ﴿ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴾، وقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ۚ ﴾، وغيرها، فلم يأت التوكيد في هذه الشواهد بناء على حال المخاطب، كلا، فلم ينظر فيها إلى حالته، وإنما رُوعي في التوكيد: الخبر، وأنه جدير بالاهتمام، ولفت الأنظار إليه، وأن فيه من الغرابة ما يحسن معه توكيده، وذلك أن حالة هذا الإنسان المتقلبة، ومواقفه المتعددة بين الجحود والنكران داعية إلى التعجب من حاله، ولفت الأنظار إليه، من خلال هذا الأسلوب، ومن هنا توافرت أدوات التوكيد في هذه الآيات في حديثها عن طبيعة الإنسان؛ لإبراز هذا الخبر، وإظهاره بهذه الصورة البليغة، وبهذا الخبر المؤكد؛ وذلك لتحقيق هذا الخبر، وتثبيته في نفوس المؤمنين، وإقامة الحجة على الكافرين، جاء التوكيد فيها اقتضاء لحق البلاغة، ووفاء بمقامها.

الوقفة الخامسة: بيان الأسرار البلاغية في توافر أسلوب الشرط في الآيات الواردة في بيان طبيعة الإنسان، فالشرط من الأساليب البارزة فيها، ولذا فلا بد من الوقوف مع هذه الأسلوب؛ لإبراز بلاغة القرآن الكريم في توظيفه لهذا الأسلوب في حديثه عن طبيعة الإنسان، وبيان ما جُبل عليه.

وردت أداتا الشرط: " إذا، وإنْ" في هذه الآيات، ولورود كل أداة من هاتين الأداتين أسرار بلاغية؛ بناء على دلالة كل أداة، والمقام الذي وردت فيه، والسرُّ في توافر هاتين الأداتين في هذه الآيات، والمغايرة في استخدام كل واحدة منها، وفي مقامات مختلفة، هو دلالة كل أداة، وارتباطها بمقام يخصها دون الأخرى؛ وذلك أن أداة الشرط " إذا" تأتي في المقامات المتحقق وقوعها، المجزوم بحدوثها، بخلاف أداة الشرط " إنْ" فتأتي في المقامات المشكوك فيها، قليلة الحدوث، نادرة الوقوع.(١)

ومن هنا تتجلى بلاغة القرآن الكريم في توظيفه لهاتين الأداتين في الحديث عن طبيعة الإنسان، جاءت أداة الشرط " إذا" في مقام الحديث عن الإنعام على الإنسان، والتفضل عليه بالرحمة، كما في قوله تعالى – في سورة يونس- : ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، وكذلك في قوله تعالى – في سورة الروم-: ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، وكذلك في قوله – في سورة الروم-: ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ ﴿٣٦﴾ ﴾ وكذلك في قوله تعالى – في سورة الشورى-: ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ ﴿٤٨﴾ ﴾، ففي هذه

(١) يُنظر: الإيضاح: ٩٦ .

الآيات التي تحدث عن جانب الخير، ووصول النفع إليه، وتفضله – سبحانه – عليه جاءت أداة الشرط " إذا"؛ دلالة على تحقق وقوعها، والجزم بحدوثها، وأنها واقعة لا محالة.

وأما في مقام الحديث عن إصابته بالضراء، وما يلحقه من الضرر والآلام فيأتي الحديث فيها بأداة الشرط " إنْ"، كما تجلى ذلك في قوله – تعالى- في سورة الروم ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ وكذلك في قوله تعالى – في سورة الشورى-:﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾، تمت المغايرة بين أداتي الشرط في الآيات السابقة، فجاءت " إذا" في مقام الخير والرحمة؛ إشارة إلى تحقق وصول الرحمة منه – سبحانه – للعباد، ودلالة –كذلك – على كثرة هذه الرحمة، وشمولها للعباد كلهم، بخلاف المصائب، فهي أقل وجوداً، ولا تصيب الناس جميعاً.(١)

وفي مجيء أداة الشرط " إذا" في الخير؛ إشارة إلى أنها هي الأصل، فهو الأكثر والأسبق، أشار إلى هذا المعنى البقاعي، في قوله: ﴿ولما دلَّ بأداة التحقق على أن النعمة هي الأصل؛ لعموم رحمته، وأنها سبقت غضبه، دل على أن السيئة قليلة بالنسبة إليها بأداة الشك ﴾.(٢)

كما أكد هذا المعنى – أيضاً- محمد الطاهر ابن عاشور في قوله: ﴿ واجتلاب " إذا" في هذا الشرط؛ لأن شأن " إذا" أن تدل على تحقق كثرة وقوع شرطها، وشأن " إن" أن تدل على ندرة وقوعها، ولذلك اجتلبت " إن" في قوله:﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ ﴾؛لأن إصابتهم بالسيئة نادرة بالنسبة لإصابتهم بالنعمة﴾.(٣)

ومما يؤكد هذا الأمر ويؤيده: أن ثمة بعض المواضع في الآيات التي تتحدث عن طبيعة الإنسان افتُتحت بقوله: "وَلَئِنْ "، وذلك في قوله – تعالى- في سورة هود: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ وكذلك في قوله تعالى – في سورة فصلت-:﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾، واللام في " وَلَئِنْ " هي اللام الموطئة للقسم(٤)، والمعنى: والله لئن أذقناه، جاء القسم في هذه الآيات؛ إشارة إلى تحقق وقوع هذا الأمر،

---

(١) يُنظر: نظم الدرر: ٩٥/١٥ .

(٢) المصدر السابق: ٣٥٠/١٧ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ١٣٥/٢٥ .

(٤) يُنظر: فتح القدير: ٤٨٥/٢ .

والجزم بحدوثها، أشار محمد الطاهر ابن عاشور إلى هذا المعنى، يقول: ﴿وتأكيد الجملة باللام الموطئة للقسم؛ لقصد تحقيق مضمونها، وأنها حقيقة ثابتة، لا مبالغة فيها ولا تغليب ﴾.(١)

ومن بدائع نظم القرآن، وعظيم إعجازه، أن "وَلَئِنْ " جاءت في الآيات التي تتحدث عن مقام الإنعام، والخير والرحمة، مما يؤكد أن الأصل المجزوم بوقوعه:هو إرادة الخير، ووصول السراء بالإنسان دون الضراء، فهو الأصل والأكثر، ومن هنا تلتقي دلالة القسم مع أداة الشرط " إذا" في الإشارة إلى سعة رحمته – سبحانه – بالإنسان، ولطفه به، وحنوه عليه، وأنه مريد به الخير، وأن ما يصيبه من الشر فليس هو الأصل، وليس هو الكثير الأغلب، وإنما ناله ما ناله من السوء بما قدمت يداه، وما يعفو عنه – سبحانه– أكثر وأكبر، فهو أهل الكرم والجود، كما أنه يستر ويعفو ويتجاوز، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

الوقفة السادسة: في بيان الأسرار البلاغية في ورود لفظة " الذوق" في مقام بيان طبيعة الإنسان، وما جُبل عليه من التقلب بين النعماء والضراء، تضمنت لفظة " الذوق" في هذه المقام عدداً من الدلالات والأسرار مراد تحقيقها، وتقريرها في بيان طبيعة النفس البشرية، وما جُبلت عليه.

ومن دلالات لفظة " الذوق" في هذا المقام: أن فيها إشارة إلى معنى اللذة والتطعم بالشيء مع الإحساس باللذة، وحسن الطعم، ولذا جاءت في جانب النعماء، أشار بعض المفسرين إلى هذا المعنى، ومن ذلك: أبو السعود، يقول: ﴿وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما، وكونهما مما يرغب فيه ﴾(٢)، وكذلك البيضاوي أشار إلى هذا المعنى، يقول – في معنى قوله – تعالى-: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ : ﴿أي أعطيناه نعمة، بحيث يجد لذتها ﴾(٣)، وممن ذكر هذا المعنى – أيضاً -: محمد الطاهر ابن عاشور، يقول: ﴿واختيرت مادة الإذاقة؛ لِما تشعر به من إدراك أمر محبوب؛ لأن المرء لا يذوق إلا ما يشتهيه ﴾.(٤)

ومن دلالات لفظة " الذوق" في هذا المقام: أن فيها إشارة إلى القلة، فالذوق مقدمة الأكل، وهو لا يكون إلا شيئاً يسيراً، وفي هذا إشارة إلى سعة هذه الرحمة وشمولها، وأن القليل منه – سبحانه – كثير؛ وذلك لعظيم أثرها وتأثيرها على الإنسان، وعظيم نفعها عليه في الدنيا والآخرة، أشار كثير من المفسرين

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٣/١٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم: ١٩٠/٤ .

(٣) تفسير القاضي البيضاوي: ٣٦/٣ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير: ١٣/١٢ .

إلى هذا المعنى، ومن ذلك: البيضاوي، يقول: ﴿وفي لفظ الإذاقة والمس؛ تنبيه على أن ما يجده الإنسان في لفظ الدنيا من النعم والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء؛ لأن الذوق إدراك الطعم ﴾[1]، كما أشار محيي الدين زادة إلى هذا المعنى، يقول: ﴿اعلم أن نعم الدنيا وإن كانت عظيمة، إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلهذا سُمي الإنعام: إذاقة ﴾[2]،تضمنت هذه المقولات في الحديث عن دلالة " الذوق" على القلة: إشارة من طرف خفي إلى ضيق الدنيا، وسعة الآخرة، وكثرة نعيم الآخرة، وقلة نعيم الدنيا، أظهرت هذه اللفظة بهذه الدلالة المفارقة التامة، والبون الشاسع بين نعيم الدنيا، ونعيم الآخرة، وحسبك بنعيم الدنيا قلة وزوالا أن عُبر عنه بلفظة " الذوق".

كما أن في دلالة " الذوق" على القلة، إشارة إلى جزع هذا الإنسان، وضعفه، وإلى سرعة تمرده وطغيانه، أدرك هذا المعنى الرازي، يقول: : ﴿لفظ الإذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم، فكان المراد أن الإنسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان، وبإدراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع في اليأس والقنوط والكفران، فالدنيا في نفسها قليلة، والحاصل منها للإنسان الواحد قليل، والإذاقة من ذلك المقدار خير قليل، ثم إنه في سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين، وخيالات الموسوسين، فهذه الإذاقة من قليل، ومع ذلك فإن الإنسان لا طاقه له بتحملها، وصبر له على الإتيان بالطريق الحسن معها ﴾.[3]

ومن دلالات لفظة " الذوق" في هذا المقام: أن فيها معنى العموم لكل ما يُتلذذ به من مطعوم ومشروب، وملبوس، ففيها معنى العموم، وفي ذلك إشارة إلى سعة كرمه – سبحانه- بأن نوَّع للإنسان، وأذاقه من النعيم أنواعاً وأصنافاً، أشار ابن عطية الأندلسي إلى هذا المعنى، يقول: ﴿" وأذقناه" هنا استعارة؛ لأن الرحمة تعم جميع ما ينتفع به من مطعوم، وملبوس، وجاه، وغير ذلك ﴾[4]، وممن أشار إلى هذا المعنى –كذلك-: أبو حيان الأندلسي، يقول: ﴿والرحمة هنا الغيث بعد القحط، والأمن بعد الخوف، والصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، وما أشبه ذلك ﴾.[5]

---

(١) تفسير القاضي البيضاوي: ٣٦/٣ .

(٢) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين: ٧١/٧ .

(٣) التفسير الكبير: ٤٥٢/٩ .

(٤) المحرر الوجيز: ١٥٣/٣ .

(٥) تفسير البحر المحيط: ١٤٠/٥ .

وكما أن هذا العموم يظهر كرمه – سبحانه – وتفضله على هذا الإنسان، فهو – أيضاً- يظهر عظيم نكران بني آدم، وكفره بهذه النعم، وبمن أسداها، وكان الأولى به مقابلة هذه النعم المتعددة والمتنوعة بالإيمان والإقبال على مسديها، لا الكفر به، والإعراض عنه، ولكن هذا طبع الإنسان، وما جُبل عليه، ومن هنا جاءت لفظة " الذوق" في هذا المقام؛ لكشف حقيقة هذا الإنسان، وبيان ما فُطر عليه من الجحود والنكران.

ومن دلالات لفظة " الذوق" في هذا المقام: أن فيها إشارة إلى سرعة تقلب هذا الإنسان بين النعماء والضراء، وتفاوت مواقفه في ذلك تجاه من أسداها إليه، فهو سريع التقلب، كثير التحول، وثمة إشارات من المفسرين إلى هذا المعنى، ومن ذلك: أبو حيان الأندلسي، يقول – في معنى قوله – تعالى- في سورة يـــــونس- : ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾: ﴿وفي هذه الجملة دليل على سرعة تقلب ابن آدم من حالة الخير إلى حالة الشر؛ وذلك بلفظ " أذقنا"، كأنه قيل: أول ذوقة الرحمة قبل أن يداوم استطعامها مكررة بلفظ " من" المشعرة ابتداء الغاية، أي ينشئ المكر إثر كشف الضراء، لا يهمل ذلك ﴾[1]، وممن أشار إلى هذا المعنى: الشوكاني، يقول: ﴿وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة، ينعم الله بها عليه؛ لأن الإذاقة، والذوق أقل ما يوجد به الطعم ﴾[2]، وممن أدرك هذا المعنى، وأشار إليه –كذلك-: محمد الطاهر ابن عاشور،يقول: ﴿واختير فعل الإذاقة؛ لما يدل عليه من إسراعهم إلى الإشراك عند ابتداء إصابة الرحمة لهم ﴾.[3]

ومن دلالات لفظة " الذوق" في هذا المقام: أن فيها إشارة إلى شدة الإحساس، وقوة الإيصال، ومباشرة الشيء ومخالطته، وللمفسرين إشارات متعددة إلى هذا المعنى، ذكر الواحدي أن التعبير بلفظة "الذوق" في الحديث عن جانب الرحمة التي تنال الإنسان، أن المراد بها: شدة إدراك الحاسة، وقوة التمتع بها[4] ، كما أن فيها معنى: مخالطة النعماء، وإدراك أثرها وتأثيرها عليهم.[5]

---

(١) تفسير البحر المحيط: ١٤٠/٥ .

(٢) فتح القدير: ٤٨٥/٢ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٩٧/٢١ .

(٤) يُنظر: التفسير البسيط: ١٥٤/١١ .

(٥) يُنظر: تفسير التحرير والتنوير: ١٣٢/١١ .

هذه بعض دلالات لفظة " الذوق" في هذا المقام، وُظِّفت هذه الدلالات في بيان طبيعة الإنسان المتغطرس الجاحد نعمة ربه، الكافر بآلائه، ومن بلاغة القرآن الكريم أن حوت لفظة الذوق هذه المعاني، وتلك الدلالات، وأن فيها مزيداً للمستبصرين والمتأملين.

يدل على بلاغة لفظة "الذوق"، وعظيم إيحائها ودلالاتها في هذا المقام:صياغتها، فجاءت مسندة إلى ضمير العظمة، إليه – سبحانه وتعالى- في قوله: " أذقنا"؛ تعظيماً له على نعمه، وعظيم تفضله على بني آدم، وتعظيماً على ما أودع في لفظة " الذوق" من الدلالات المتعددة، والإيحاءات المتنوعة التي تدل على بلاغة هذا القول، وإعجاز نظمه.

الوقفة السابعة: المتأمل لورود لفظة " الذوق" في الآيات التي تبين طبيعة الإنسان يجد أنها تأتي في الحديث عن جانب النعماء والسراء التي ينعم الله بها على الإنسان، ويتمتع بها، أما في جانب الضراء، والبؤس الذي يصيب الإنسان فتأتي معها لفظة " المس"، وذلك متواتر في هذه الآيات كلها، كما في قوله – تعالى – في سورة يونس ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ، وكذلك قوله – تعالى – في سورة هود-:﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ،وكذلك قوله – تعالى – في سورة الروم-:﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

فجاء في هذه الآيات كلها " الذوق" مع النعماء، و" المس" مع الضراء، فما دلالة ذلك في الحديث عن طبيعة الإنسان؟ أما الحديث عن لفظة " الذوق" فتقدم بيان معناها، ودلالة ورودها وأسرارها البلاغية في هذا المقام، أما لفظة " المس" فهي استعارة – أيضاً- للإيصال، ومعنى " مستهم" أي: ﴿خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم ﴾[1]، ولذا فـ(المس) مستعمل في مطلق الإصابة مجازاً .[2]

و(المس) أخف ألماً، وأقل خطراً، وحقيقته: ﴿وضع اليد على شيء؛ ليعرف وجوده، أو يُختبر حاله ﴾ [3]، ومن هنا يُعرف سرُّ ورودها في مقام الضراء في بيان طبيعة الإنسان، جاءت في هذا المقام؛ لتدل على خفة الإصابة التي تصيب الإنسان، ومع ذلك فإنه – لجزعه، وقلة صبره- إذا حلت به هذه المصائب فإنه يدعو الله دعاء شديداً، ويقبل عليه إقبالا كبيراً، وما ناله من السوء إلا نزر يسير؛ دلالة على عدم تحمله، وكبير جزعه، ومن هنا يظهر لطف الله – سبحانه وتعالى – بهذا الإنسان الضعيف، فجاءت لفظة

(١) الكشاف: ٢/٢٣١ .

(٢) يُنظر: تفسير التحرير والتنوير: ١٢/١٤ .

(٣) المصدر السابق: ٢١/٩٧ .

"الذوق" في جانب النعماء؛ لأن فيها معنى القوة والتمكن، والتنعم والتلذذ، كما جاء إسنادها إلى الله – عزَّ وجل-؛ تكرماً منه وتلطفاً، ومنّة عظمى بهذا الإنسان، بخلاف لفظة (المس) فجاءت في جانب الضراء التي تصيب الإنسان؛ لخفتها، وقلة أذاها، ولم تُسند إليه – سبحانه-؛ فالشر ليس إليه، بل كانت جزاء ما اقترفته أيديهم؛ جزاء وفاقا.

ومن هنا تتجلى بلاغة القرآن الكريم في توظيفه لهذه الألفاظ في بيان طبيعة الإنسان، وفي بيان طبيعة النفس البشرية، المجبولة على الكفر والعناد، وعلى التقلب والتغيير، وعلى الكفر والنكران، وحسُن توظيف هاتين اللفظتين أبلغ توظيف ظهر معه إعجاز القرآن، فكانت ﴿الضراء بالمس؛ المشعر بكونها في أدنى ما ينطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها، وإسناد الأول إلى الله دون الثاني ما لا يخفى من الجزالة، والدلالة على أن مراده – تعالى- إنما هو إيصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون، وأنه إنما يريد بعباده اليسر دون العسر، وإنما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلاً يسيراً كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير ﴾.(١)

وممن أدرك هذا المعنى، وأشار إليه محمد الطاهر ابن عاشور، يقول: ﴿واختيار فعل (المس) بالنسبة إلى إدراك الضراء؛ إيماء إلى أن إصابة الضراء أخف من إصابة النعماء، وأن لطف الله شامل لعباده في كل حال ﴾.(٢)

المقام الحادي عشر : في مقام الحديث عن عذاب الآخرة:

وردت لفظة " الذوق" في مقام الحديث عن عذاب أهل النار في الآخرة، وهو أكثر المقامات التي وردت فيها لفظة "الذوق" في القرآن الكريم ، بلغ عدد هذه المواضع ثلاثة وثلاثين موضعاً، وهذه المواضع هي:

١. في سورة آل عمران، في قوله – تعالى-: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

٢. في سورة آل عمران، في قوله – تعالى-: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ .

---

(١) إرشاد العقل السليم: ١٩٠/٤ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ١٤/١٢ .

٣. في سورة النساء، في قوله – تعالى – : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ ﴾ .

٤. في سورة الأنعام، في قوله – تعالى –: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

٥. في سورة الأعراف، في قوله – تعالى –: ﴿ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

٦. في سورة الأنفال، في قوله – تعالى –: ﴿ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

٧. في سورة الأنفال، في قوله – تعالى –: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

٨. في سورة الأنفال، في قوله – تعالى –: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾ .

٩. في سورة التوبة، في قوله – تعالى –: ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

١٠. في سورة يونس، في قوله – تعالى –: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

١١. في سورة يونس، في قوله – تعالى –: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

١٢. في سورة الحج، في قوله – تعالى –: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾ .

١٣. في سورة الحج، في قوله – تعالى –: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

١٤. في سورة الفرقان، في قوله – تعالى –: ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴿١٩﴾ ﴾ .

١٥. في سورة العنكبوت، في قوله – تعالى –: ﴿ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

١٦. في سورة السجدة، في قوله – تعالى-: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾، وقد وردت لفظة " الذوق" في هذه الآية مرتين.

١٧. في سورة السجدة، في قوله – تعالى-: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

١٨. في سورة سبأ، في قوله – تعالى-: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ .

١٩. في سورة سبأ، في قوله – تعالى-: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

٢٠. في سورة فاطر، في قوله – تعالى-: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

٢١. في سورة الصافات، في قوله – تعالى-: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

٢٢. في سورة الصافات، في قوله – تعالى-: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

٢٣. في سورة ص، في قوله – تعالى-: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

٢٤. في سورة الزمر، في قوله – تعالى-: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

٢٥. في سورة فصلت، في قوله – تعالى-: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

٢٦. في سورة فصلت، في قوله – تعالى-: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

٢٧. في سورة الدخان، في قوله – تعالى-: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

٢٨. في سورة الأحقاف، في قوله – تعالى-: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

٢٩. في سورة الذاريات، في قوله – تعالى-: ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ۖ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

٣٠. في سورة القمر، في قوله – تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

٣١. في سورة النبأ، في قوله – تعالى-: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ .

٣٢. في سورة النبأ، في قوله – تعالى-: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ .

وفيما يأتي وقفات مع بلاغة القرآن الكريم في استخدام لفظة " الذوق" في هذا المقام:

الوقفة الأولى: كثُر ورود لفظة (الذوق) في هذا المقام على جميع ورودها في المقامات الأخرى في القرآن الكريم، بلغ ورودها في هذا المقام ثلاثة وثلاثين مرة، وفي ذلك حكمة بالغة ، والحكمة في ذلك – والله أعلم-: أن الخطاب الوارد في لفظة " الذوق" في هذا المقام موجه للمشركين، يُقال لهم ذلك وهم في جهنم، فالآخرة دار جزاء وحساب، وقد حان حسابهم، وحلّ بهم ما كانوا يُوعدون من العذاب، وما أصابهم في الدنيا من المصائب والآلام فهو كالعدم بالنسبة لعذاب الآخرة، بل إن غمسة واحدة في النار تنسيهم نعميم الدنيا كله كما ورد ذلك في الحديث الصحيح. (١)

وردت الإشارة إلى هذا المعنى في آيات كثيرة، ومنها الآيات التي وردت فيها لفظة " الذوق"، ومن ذلك قوله – تعالى- في سورة السجدة: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، وكذلك في قوله – تعالى- في سورة فصلت: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾، وكذلك في قوله – تعالى- في سورة الزمر: ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾، وغيرها من الآيات.

الوقفة الثانية: وردت لفظة " الذوق" في هذا المقام في عدد من سور القرآن، وردت في اثنتين وعشرين سورة، وهذه السور هي: آل عمران، النساء، الأنعام، الأنفال، التوبة، الصافات، النبأ، ص، الدخان، الأعراف، يونس، الحج، العنكبوت، السجدة، سبأ، فاطر، الزمر، الأحقاف، الذاريات، القمر، الفرقان، فصلت، وجلُّ هذه السور مكية، وأربعة منها فقط مدنية، وهي: سورة آل عمران، والنساء،

(١) يُنظر: صحيح سنن ابن ماجة: باب صفة النار، رقم الحديث: ٣٤٨٨ .

والأنفال، والتوبة[1]، ولذا فأغلب ورود للفظة " الذوق" في هذا المقام واردة في العهد المكي، ولذلك دلالة يحسن ذكرها، والإشارة إليها، وهو: أن الفترة الزمنية التي قضاها النبي – صلى الله عليه وسلم- في مكة تزيد على الفترة الزمنية التي قضاها في المدنية، ونتج عن ذلك كثرة نزول الآيات في هذا الجانب في العهد المكي، والسبب الثاني – وهو الأهم -: أن القرآن الكريم في العهد المكي يخاطب في مكة كفار قريش، وهو منكرون للبعث كل الإنكار، جاحدون له، فقد كفروا بالبعث والنشور، كما كفروا بالحساب والجزاء، ومن ثَم جاءت آيات الكتاب العزيز تذكرهم وتتوعدهم بالبعث والحساب، وأنهم مبعوثون ومحاسبون على أقوالهم وأفعالهم، وأنهم داخلون النار، ومعذبون فيها، ولن يجدوا مناصاً ولا مهربا من ذوق هذا العذاب، ولهذين السببين كثر ورود لفظة " الذوق" في هذا المقام، في العهد المكي، بل يكاد يكون هذا الأمر سمة بارزة، وخاصية من الخصائص الموضوعية للآيات في العهد المكي.

الوقفة الثالثة: عند النظر في لفظة " الذوق" الواردة في هذا المقام نجد أن الأغلب في هذه اللفظة أنها واردة بصيغة فعل الأمر، بلفظة " فذوقوا"، وبصيغة الجمع كذلك، وردت بلفظة المفرد في موضع واحد، في قوله – تعالى- في سورة الدخان﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ ، وثمة أسرار بلاغية في مجيء لفظة " الذوق" بصيغة الأمر في هذا المقام، ومن الأسرار في ذلك: أن لفظة " الذوق" في هذا المقام تخاطب المشركين وهم في النار، ففيها دلالة على المواجهة، والأمر لهم بمباشرة ذوق العذاب، فالملائكة من خزنة جهنم يسومون المشركين سوء العذاب، فيتوجهون إليهم مباشرة بالخطاب، ويأمرونهم أمراً بذوق عذاب النار، بيد أن حِكَم هذه الصياغة ودلالاتها لا تقف عند هذه الغاية، فلا يزال فيها حِكم وأسرار، فمن أسرار هذا الأمر وبلاغته: أن فيه تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً بهم في هذا الموضع، وتوبيخاً لهم على هذا الحال الذي آلوا إليه، وعلى سوء أعمالهم التي كانوا يعملون بها في الدنيا، أشار ابن كثير إلى هذا المعنى في قوله: « أي يُقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب؛ بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له، إذ عاملتموه معاملة من هو ناسٍ له ».[2]

وفي مخاطبة أهل النار في النار بلفظة (ذوقوا) تهديد لهم ووعيد بأنهم سيذوقون في هذه النار عذاباً شديداً، لا طاقة لهم به ولا قوة لهم بالصبر عليه وتحمله، أشار إلى هذا المعنى الواحدي، يقول – في تفسير قوله – تعالى في سورة الأنفال-: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾: «ومعنى الآية:

(١) يُنظر البرهان في علوم القرآن: ١٩٣/١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٥٠٥/٣ .

وعيد للكافرين بعذاب بالنار، بعد مانزل بهم من ضرب الأعناق، وكل بنان »[1]، وممن ذكر معنى التهديد في هذا القول: الشوكاني، بيَّن أن في هذا القول: « تهديداً لهم، ومبالغة في إدخال الروعة في قلوبهم ». [2]

وفي الأمر للكفار بذوق العذاب وهم في النار إهانة لهم، واحتقار، وازدراء بهم وبحالهم، إشارة إلى أنهم يُهانون بالعذاب قولاً وفعلاً[3]، وممن ذكر هذا المعنى أبو السعود، يقول: «على أن الأمر بالذوق على طريق الإهانة مترتب على كفرهم»[4]، وممن أشار إلى هذا المعنى –كذلك– محمد الطاهر ابن عاشور، فذكر أن الأمر في قوله: "فذوقوه": « للشماتة على تحقيق الوعيد، فصيغة الأمر مستعملة في الشماتة والإهانة ». [5]

يدل على دلالة لفظة " الذوق" على التهكم: أن قول الله – تعالى– في سورة الدخان ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ من الشواهد التي يستشهد بها البلاغيون على الاستعارة التهكمية[6]،جاء التهكم من الأمر بذوق العذاب، وهو في هذا الموضع المهين مخاطباً به العزيز الكريم، والمعنى: إنك لست بعزيز ولا كريم[7]، أشار الزمخشري إلى هذا المعنى، يقول – في معنى هذه الآية–: «على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز، ويتكرم على قومه ». [8]

ذكر البقاعي معنى جميلاً في دلالة لفظة " الذوق" على الإهانة، يقول: «ولما علم بهذه الآية أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً، بل وصل إلى غاية الهوان، دُل عليه بالتهكم بما كان يظن في نفسه من العظمة التي كان يترفع بها في الدنيا على أوامر الله، فقيل له: ذق »[9]، ولذا فالأمر في قوله: " ذق" «مستعمل في التهكم بعلاقة الضدية، والمقصود عكس مدلوله، أي أنت الذليل المهان، والتأكيد للمعنى التهكمي ». [10]

---

(١) التفسير البسيط: ٦٠/١٠ .

(٢) فتح القدير: ٣٦/٢ .

(٣) يُنظر: تفسير القرآن العظيم : ٢٣٥/٣ .

(٤) إرشاد العقل السليم: ٦٩/٢ .

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ٢٨٥/٩ .

(٦) يُنظر: علم البيان: ٢٠٥، للدكتور بسيوني عبدالفتاح فيود.

(٧) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ١٥٤/٤ .

(٨) الكشاف: ٥٠٧/٣ .

(٩) نظم الدرر: ٤٦/١٨ .

(١٠) تفسير التحرير والتنوير: ٣١٦/٢٥ .

إذن فقد دل الأمر لهم بذوق العذاب على إهانتهم قولا وفعلا، اجتمع لهم فيها العذاب الحسي، والعذاب المعنوي، إشارة إلى عِظم العذاب، وشدة المقت، أشار بعض المفسرين إلى هذا المعنى، ومن ذلك: ابن كثير، يقول: ﴿ومعنى الكلام أنهم يُهانون بالعذاب قولاً وفعلاً ﴾[1]، وممن أشار إلى هذا المعنى – كذلك-: أبو حيان الأندلسي، مبيناً الحكمة في الجمع بين القول والفعل في هذا المقام، يقول: ﴿ولما كان الصادر منهم قولاً وفعلاً ناسب أن يكون الجزاء قولاً وفعلاً...، وفي الجمع بين القول والفعل أعظم انتقام، ويقال للمنتقم منه: حس وذق ﴾[2]، وممن أشار إلى هذا المعنى – أيضاً-: القاسمي، يقول – في تفسير قول الله – تعالى- ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ -: ﴿ أي يقال له ذلك على سبيل الهزؤ والتهكم، فيتم له مع العذاب الأول وهو الحسي، العذاب العقلي ﴾. [3]

ومن دلالات فعل الأمر بذوق العذاب في هذا المقام: أن فيه إشارة إلى دوام العذاب، وعدم انقطاعه، ولذا فهم في هذا العذاب خالدون مخلدون، ما دامت السماوات والأرض، لا يفتر عنهم العذاب، وهم فيه مبلسون، أشار الزمخشري إلى هذا المعنى، يقول: ﴿ أي ليدوم له ذوقه، ولا ينقطع،كقولك للعزيز: أعزك الله، أي أدامك على عزك، وزادك فيه ﴾[4]، وكذلك أهل النار في النار ففي الأمر إذن دلالة على دوم العذاب، وعدم انقطاعه، وخلوصهم منه.

هذه بعض دلالات صيغة الأمر في لفظة " الذوق" الواردة في هذا المقام، وثمة صيغ أخرى وردت للفظة الذوق في هذا المقام، بغير الفعل الأمر، وهي قليلة، وردت لفظة " الذوق" فعلاً مضارعاً مسندة إلى ضمير العظمة إلى الله – سبحانه وتعالى-، وهذه الصيغ هي: " نذيقه، ونذيقهم، ولنذيقنهم"، وفي هذه الصيغ: تعظيم له – سبحانه وتعالى-، وهو – سبحانه – لا يعظم نفسه إلا على أمر عظيم، فدل ذلك على عِظم هذا العذاب وشدته، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الوقفة الرابعة: من يتأمل لفظة " الذوق" الواردة في هذا المقام يجد أن في جملة لفظة " الذوق" حذفاً، صحب الحذف لفظة (الذوق) في هذا المقام كثيراً، ولا تخفى أهمية هذا الأسلوب وجزالته، كما أن له مقاماته التي يأتي فيها، والأسرار البلاغية التي ينطوي عليها، ومجيء الحذف في هذا المقام متوافق مع

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٣٥/٣ .

(٢) تفسير البحر المحيط: ١٣٦/٣ .

(٣) محاسن التأويل: ٥٣١٤/١٤ .

(٤) الكشاف: ٧٣/٢ .

شدة الوعيد والتهديد، كما أن فيه دلالة على شدة المقت، ودلالة –كذلك– على شدة العذاب، وفي ذلك توافر مع دلالة لفظة " الذوق" في هذا المقام في الدلالة على شدة العذاب، وقوته واستمراره.

وممن أشار إلى هذا الحذف وبلاغته في لفظة " الذوق" في هذا المقام، الواحدي يقول – في تفسير قوله – تعالى– في سورة الأنفال–: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾ ((فيه إضمار، أي ويقولون: ذوقوا عذاب الحريق، وإنما الحذف لدلالة الكلام عليه من جهة أن عقابهم يقتضي أن يُقال لهم ما يسؤوهم، وحذف القول في القرآن الكريم كثير)).[1]

ومن شواهد الحذف في لفظة " الذوق" في هذا المقام: قول الله – تعالى– في سورة فاطر: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾، حُذف مفعول الذوق؛ لدلالة المقام عليه، وهو العذاب، أي ذوقوا ما أنتم فيه من أنواع العذاب في النار[2]، ومن بلاغة هذا الحذف: إرادة العموم؛ ليذوقوا العذاب كله، بكل أصنافه وأنواعه، وذلك أدخل في باب الوعيد والتهديد، ولو ذُكر نوع العذاب لتقيد في المذكور؛ وذلك تقليل له وحصر، بيد أن الأنسب في هذا العذاب، وفي هذا المقام أن يأتي بهذا الحذف، وبهذا الإطلاق؛ ليكون أبلغ وأقسى.

ومن بلاغة الحذف ودلالاته: أنه حذف فاعل القول في هذه الآيات، فلم يُذكر الآمر لهم بذوق العذاب في هذا المقام، هل هو الله – سبحانه وتعالى–؟ أم الملائكة؟ أم خزنة جهنم؟ وفي هذا الحذف مزيد من العذاب، ومزيد من الوعيد؛ وذلك أن هذا الأمر يأتيهم من كل جانب، ومن كل حدب وصوب، وكل جهة، وفي ذلك إهانة بالغة لهم وإذلال، فكل يأمرهم، وكل يتهددهم، وكل يتوعدهم، وقد أشار البقاعي إلى هذا المعنى، يقول في تفسير قول الله –تعالى–: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ((أي مقولاً لهم من أي قائل اتفق " ذوقوا"؛ لأنهم لا منعة لهم، ولا حمية عندهم بوجه)).[3]

---

(١) التفسير البسيط: ١٩٧/١٠ .

(٢) يُنظر: تفسير التحرير والتنوير: ٣٢٠/٢٢ .

(٣) نظم الدرر: ١٣٢/١٩ .

الوقفة الخامسة: للفظة " الذوق" الواردة في هذا المقام أسرار بلاغية، ونكت بيانية مراد تحقيقها، وتقريرها في هذا المقام، وقد حسُن توظيفها في بيان عذابهم وشدته، وما كانت هذه الأسرار لتكون لو خلا المقام من لفظة " الذوق"، ومن دلالات لفظة " الذوق" في هذا المقام ما يأتي:

أن فيها إشارة إلى شدة العذاب، وقوته، واستمراره، و ديموميته، وهذا من بلاغة القرآن الكريم، وعظيم إعجازه أن استخدم لفظة " الذوق" الدالة على القلة، ومقدمة الشيء في الدلالة على شدة العذاب وتنوعه، والتمكن منه، والاستمرار فيه، أشار الواحدي إلى هذا المعنى، يقول: ((استُعمل لفظ " الذوق" هنا مع عظيم ما نالوا من شدة العذاب؛ إخباراً بأن إحساسهم به، وفي كل حال كإحساس الذائق في تجديد الوجدان من غير نقصان في الإحساس، كما يكون في الذي يستمر به الأكل فلا يجد الطعم)). (١)

يدل على أن المراد بذوق العذاب: شدة الإحساس، وشدة الألم: قول محمد الطاهر ابن عاشور: ((والذوق حاسة يحصل معها إدراك الطعم، وهو هنا توسع، والمراد به: إدراك الألم))(٢)، ولأن اللسان أكثر الأعضاء وأقواها إحساساً بالمطعوم جاءت لفظة " الذوق" في هذا المقام؛ إشارة إلى شدة إحساس الكفار بالعذاب، ووصوله إليهم، وتمكنه منهم، ومن هنا جاءت لفظة "الذوق" في هذا المقام؛ ((لأن إحساس الذوق باللسان أشد من إحساس ظاهر الجلد، فوجه الشبه: قوة الحس، والمذوق هو العذاب، فهو جزاء ما اكتسبوه في الدنيا من الشرك وشرائعه، فجعل الذوق نفس ما كانوا يكسبونه؛ مبالغة مشيرة إلى أن الجزاء وفق أعمالهم، وأن الله عادل في تعذيبهم)). (٣)

ومن خلال ما تقدم من دلالات لفظة (الذوق) يُعلم أن دلالتها ليست ثابتة، بل تتغير على حسب تغير المقامات، فإذا كانت لفظة " الذوق" تدل على القلة؛ لكون الذائق لا يتذوق إلا شيئا يسيراً، ونزرا قليلاً؛ إذ لو كثر لصار طعاماً، وليس ذوقاً، فهذه الدلالة ليست ثابتة في كل مقام، وإنما هي في عذاب الدنيا؛ إشارة إلى ما ينتظرهم من العذاب في الآخرة، يدل على هذا: قول أبي حيان الأندلسي، يقول: ((ولما كان عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة يسيراً سُمي ما أصابهم منه ذوقاً؛ لأن الذوق يعرف به الطعم، وهو يسير؛ ليعرف به حال الطعم الكثير، فما حصل لهم من العذاب في الدنيا كالذوق القليل بالنسبة إلى ما أعد الله لهم في الآخرة من العذاب العظيم)). (٤)

---

(١) التفسير البسيط: ٥٣٣/٦ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٤٤٤/٣ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٣٩٤/٢٣ .

(٤) تفسير البحر المحيط: ٤٤٦/٤ .

بيد أن هذه الدلالة تتلاشى في الآخرة؛ إذ ليس المراد منها: القلة، بل شدة العذاب، وقوة الإحساس به، أشار بعض المفسرين إلى هذه الحقيقة، ومن ذلك قول الرازي، يقول: ﴿وإنما يقال: فلان ذاق العذاب؛ إذا أدرك شيئاً قليلا منه، والله – تعالى– وصف أنهم كانوا في أشد العذاب، فكيف يحسن بعد ذلك أنهم ذاقوا العذاب؟!، والجواب: المقصود من ذكر الذوق: الإخبار بأن إحساسهم بذلك العذاب في كل حال يكون كإحساس الذائق للمذوق؛ من حيث إنه لا يدخل منه نقصان وزوال، بسبب ذلك الاحتراق ﴾[1]، وممن أشار إلى هذا المعنى–كذلك–: أبو السعود، يقول: ﴿والتعبير عن إدراك العذاب بالذوق؛ ليس لبيان قلته، بل لبيان أن إحساسهم بالعذاب في كل مرة كإحساس الذائق بالمذوق من حيث إنه لا يدخله نقصان؛ لدوام الملابسة، أو للإشعار بمرارة العذاب، مع إيلامه، أو للتنبيه على شدة تأثيره من حيث إن القوة الذائقة أشد الحواس تأثيراً، أو على سرايته للباطن ﴾. [2]

ومن دلالات لفظة " الذوق" في مقام عذاب الكفار في الآخرة: أن فيها إشارة إلى وصول العذاب لهم، وإدراك ألم هذا العذاب؛ إشارة إلى شدة النار التي يُعذَّبون فيها، وقد أشار بعض المفسرين إلى هذا المعنى، ومن ذلك الواحدي، يقول: وقيل: ﴿" ذوقوا" لوصول الألم إلى المعذَّب، كوصول الذوق إلى الذائق ﴾[3]، إذن ففيه إشارة إلى الإحساس بالشيء، : ﴿وقد شاع في كلام العرب: إطلاق الذوق على الإحساس بالخير، أو بالشر، وورد في القرآن كثير ﴾[4]، كما هو في آيات لفظة " الذوق" في مقام العذاب في الآخرة، ومن هنا جاءت لفظة " الذوق"؛ للتعبير عن شدة الإحساس بالألم، وشدة العذاب في النار؛ وذلك أنها تتضمن: الدلالة على الإحساس القوي المتمكن؛ لكون اللسان أكثر الأعضاء إحساساً، ولذا كان هو أداة الذوق.

ولذا فالمراد بذوق أهل النار للعذاب: ﴿أنهم يجدون حقيقة العذاب، وجوهر العذاب، ويعالجون ألمه، وأوجاعه، ويجدون كل ذلك كما يجد ذائق الطعام جوهر الطعام وحقيقته وطعمه ونكهته، والتذوق في كل شيء نهاية العلم به، ونهاية معرفته بدقيقه وجليله ﴾. [5]

---

(١) التفسير الكبير: ١٣٥/١٠ .

(٢) إرشاد العقل السليم: ١٩٢/٢ .

(٣) التفسير البسيط: ٥٤٦/١٧ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير: ١٨٥/٤ .

(٥) آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان: ٤٠١ .

الوقفة السادسة: ورود لفظة (الذوق) الواردة في هذا المقام بهذه الدلالة، وبهذه الكثرة، وبهذا الأسلوب البليغ، القوي الجزل دلالة على شدة مقته – سبحانه وتعالى- على الكافرين؛ لكون هذه اللفظة –كما يذكر الدكتور محمد محمد أبو موسى-: ﴿ بُنيت على غضب شديد، تجد هذا الغضب الشديد في كلماتها، وفي موقعها ﴾[1]، جاء التعبير عن ذلك المقت من خلال لفظة " الذوق" ودلالاتها، ومن خلال هذا النظم القرآني الفريد.

وثمة كثير من الإشارات الدالة على شدة مقته – سبحانه-، وعظيم غضبه عليهم، ومن ذلك: أن أشد آية نزلت على الكافرين من حيث: جرسها، ومعناها، جاء ذكرها وبيانها من خلال لفظة (الذوق) الواردة في مقام عذاب الكافرين في النار، وذلك في قوله – تعالى- في سورة النبأ ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾، ﴿يدل على ذلك قول عبدالله بن عمر، يقول:لم ينزل على أهل النار أشد من هذه الآية: ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾، قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً ﴾. [2]

وحتى يتبين المراد من هذه الآيات؛ ليتضح منه شدة المقت المعبَّر عنه بلفظة (الذوق) في هذا المقام أذكر الآيات التي تضمنتها، والسياق الذي جاءت فيه، وهو قوله – تعالى - ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾، ذكر – سبحانه- غفلتهم في الدنيا عن الدار الآخرة، بل تكذيبهم به، ﴿فلم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يُجازون فيها ويحاسبون، كما كانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة ﴾. [3]

وفي تأكيد الخبر بـ" إن" في قوله: " إنهم" إشارة إلى الجزم في بيان الحالة التي كانوا عليها في الدنيا، وهو – سبحانه- أصدق القائلين، بيد أن مجيء الآية بهذا التأكيد؛ إدانة لهم بأفعالهم المشينة، فهذا حالهم، وذلك ديدنهم، ولا مناص لهم للجحود والنكران، أشار محمد الطاهر ابن عاشور إلى بلاغة هذا التأكيد، يقول: ﴿وحرف " إن"؛ للاهتمام بالخبر، وليس لرد الإنكار؛ إذ لا ينكر أحد أنهم لا يرجون حساباً، وأنهم

---

(١) آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان: ٤٠٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤٩١/٤ .

(٣) المصدر السابق: ٤٩١/٤ .

مكذبون بالقرآن »[1]، ولذا فقد تضمن قوله – تعالى-:﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ تعليلاً لاستحقاقهم هذا العذاب. [2]

وفي مجيء لفظة " يرجون" فعلاً مضارعاً مزيد إنكار عليهم وتشنيع، وفيه دلالة كذلك على سوء موقفهم وقبحه؛ وذلك أنها تفيد التجدد والاستمرار، فقد تجدد كفرهم باليوم الآخر، واستمر حدوثه؛ إشارة لسوء طويتهم، وخبث قلوبهم، فهم «كلما أُعيد لهم ذكر يوم الحساب جددوا إنكاره، وكرروا شبهاتهم على نفي إمكانه؛ لأنهم قالوا: إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ». [3]

إذن فهذا حالهم، وذلك موقفهم من آيات الله التي حقها الإيمان بها، والإقبال عليها، ولكنه – سبحانه- رقيب عليهم حسيب، جاءت الإشارة إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ ﴾ وهذه الآية معترضة بين فعلهم المشين في الدنيا، وبين العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة، يدل على ذلك قول صاحب الفتوحات الإلهية : «وهذه الجملة معترضة بين السبب ومسببه؛ فإن قوله: " فذوقوا" مسبب عن تكذيبهم، وفائدة الاعتراض: تقرير ما ادعاه من قوله: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ». [4]

وثمة فائدة أخرى للاعتراض: ففيها مزيد من ذم الكافرين الذين كذبوا بآيات ربهم كذاباً، أشار محمد الطاهر ابن عاشور إلى سرِّ الاعتراض بقوله: «وفائدة هذا الاعتراض: المبادرة بإعلامهم أن الله لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، فلا يدع شيئاً من سيئاتهم إلا يحاسبهم عليها ما ذكر هنا وما لم يذكر ». [5]

وبعد أن ذكر – سبحانه- حالهم في الدنيا، وسوء فعلهم وقبحها ذكر عقابهم في الآخرة في قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾، أي فيقال لهم، وقد حُذف القائل في هذا المقام؛ إشارة إلى شدة مقته –سبحانه – عليهم، فهم أقل شأناً من أن يُسند هذا العذاب إليه – سبحانه- في هذا المقام، وفيه تعجيل للعذاب، وتعجيل لهم بما يسؤوهم، وتعجيل لهم بالهوان والصغار، وكأن المراد في هذا السياق: أن يذوقوا العذاب، بغض النظر عمن يعذبهم.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/٣٩ .

(٢) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٩/٩١ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/٤٠ .

(٤) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين: ٨/٢١٩، وفي نفسي شيء من قوله: " تقرير ما ادعاه" فكأن فيها شيئا من عدم الأدب مع الله –سبحانه وتعالى-، فهو سبحانه لا يدعي، وإنما يقرر.

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/٤١ .

جاءت الآية بأسلوب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، ففيه مزيد من التهديد بأن توجه بالخطاب إليهم مهدداً ومتوعداً، فالوعيد بالعذاب، والمخاطبة به عذاب فوق عذاب، ففيه مزيد من التهويل، والتشديد عليهم، فمجيء الالتفات بهذا المقام، وبهذا الطريق دليل –كما يذكر الزمخشري–: أن الغضب قد تبالغ، وبلغ منتهاه [1]، فيُقال لهم هذا القول عند مباشرة العذاب، وإدراك الألم، وهو من العذاب المعنوي لهم، الذي يضاعف آلامهم، ويزيد مصابهم .[2]

ومن بلاغة الالتفات: أنه تضمن أمراً لهم بذوق العذاب في الحال، وفي المآل، أما الحال فدل عليه بقوله: " فذوقوا"، وأما في الاستقبال فجاءت الإشارة إليه بقوله:﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ فقد ((أكد ذوقهم في الاستقبال، فقال ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ ﴾ أي شيئاً من الأشياء، في وقت من الأوقات ﴿إِلَّا عَذَابًا ﴾، فإن داركم ليس بها إلا الجحيم، كما أن الجنة ليس بها إلا النعيم، فأفهم هذا أن حصول شيء لهم غير العذاب محال)). [3]

توافر في هذه الآية من خلال نظمها كثير من الأساليب البلاغية، وقد تضافرت فيما بينها في الدلالة على شدة المقت والغضب على أهل النار، وهم في النار، منها: الأمر في قوله: " فذوقوا" فهو أمر تحقير وإذلال لهم، وإهانة وتصغير[4]، فضلاً عن دلالات لفظة (الذوق) في هذا المقام، ذكرتُ دلالاتها وبلاغتها، والمراد بها في هذا السياق، ناهيك عن الحذف الذي تضمنته هذا الأمر؛ إشارة إلى هوانهم وصغارهم عند الله، فهم أقل شأناً أن يأمرهم – سبحانه– بذلك، أو أن يُذكر اسمه – سبحانه – أو ضميره في هذا المقام، ومن بلاغة هذا الحذف: الإشارة إلى تعدد من يأمرهم بذلك، نظراً إلى تعدد عذابهم، وتعدد أوقاته، وفي الالتفات بهذا الطريق مزيد من الترهيب، وإظهار لهذا الوعيد، وتحقيق لشدة المقت، وقوة الغضب منه – سبحانه – على هؤلاء الكافرين، فضلاً عن قوله: ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾، أشار الزمخشري إلى بلاغتها ودلالتها، يقول: ((وهي آية في غاية الشدة، وناهيك بـ: " لن نزيدكم" وبدلالته على أن ترك الزيادة كالمحال الذي لا يدخل تحته الصحة)). [5]

---

(١) يُنظر: الكشاف: ٢١٠/٤ .

(٢) يُنظر: تفسير الجلالين: ٧٨١ . .

(٣) نظم الدرر: ٢٠٨/٢١ .

(٤) يُنظر: الفتوحات لإلهية بتوضيح تفسير الجلالين: ٢١٩/٨ .

(٥) الكشاف: ٢١٠/٤ .

ولذا فهذا التركيب من تأكيد الشيء بما يشبه ضده، أشار محمد الطاهر ابن عاشور إلى هذا الأسلوب وبلاغته، يقول: ﴿وهو أسلوب ظريف من التأكيد، إذ ليس فيه إعادة لفظ، فإن زيادة العذاب تأكيد للعذاب الحاصل، ولما كان المقصود: الوعيد بزيادة العذاب في المستقبل جيء في أسلوب نفيه بحرف نفي المستقبل، وهو " لن"، فيكون معنى جملة الاستثناء: سنزيدكم عذاباً أبداً، وهو معنى الخلد في العذاب، وهو في هذا الأسلوب ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس، وذلك أشد حزناً وغما بما يوهمهم أن ما لقوا فيه هو منتهى العذاب؛ حتى إذا ولج ذلك أسماعهم فحزنوا له، أتبع بأنهم ينتظرهم عذاب آخر أشد فكان ذلك حزناً فوق حزن، فهذا هو منوال هذا النظم، وهو مؤذن بشدة العضب ﴾. (١)

فضلاً عن شدة وقعها، وقوة جرس لفظها، ففيها شدة توحي بشدة التكذيب، والإصرار عليه، تبعه –كذلك– شدة في العذاب، وشدة في المقت عليهم، وما ربك بظلام للعبيد.

ومن بلاغة هذا الأسلوب: أن فيه إعادة لذكر العذاب من غير تكرار، فذُكر العذاب مصرَّحاً به في قوله " إلا عذاباً "، بعد ذكره تضميناً في قوله: " فذوقوا"؛ إذ المعنى: ذوقوا العذاب، فذُكر العذاب مرتين من غير إعادة لفظه، وهذا من بلاغة القرآن الكريم، وعظيم إعجازه.

ومن بلاغة هذا الأسلوب –كذلك–: أن المكرر في هذا المقام، هو: العذاب، فيزداد الكافرون وهم في النار غماً على غمهم، ومن هنا يتضاعف حزنهم، وتزيد آلامهم، ولذا كانت هذه الآية أشد آية على الكافرين، وأقسى على أسماعهم وهم في النار، وثمة عدة إشارة من المفسرين في بيان هذه الحقيقة وتأكيدها، ومن ذلك قول الزمخشري: – فبعد أن ذكر بلاغتها، ذكر أن ذلك شاهد على أن المقت من الله – سبحانه وتعالى– على الكافرين قد تبالغ(٢)، وقد أكد هذا الأمر أبو السعود بقوله: ﴿ وفيها من الدلالة على تبالغ الغضب ما لايخفى ﴾. (٣)

ولذا كانت هذه الآية أشد ما في القرآن الكريم على أهل النار؛ وذلك أنها ﴿تدل على أنهم كلما استغاثوا من نوع من العذاب أُغيثوا بأشد منها، فتكون كل مرتبة منه متناهية في الشدة، وإن كانت مراتبه غير متناهية، بحسب العدد والمدد ﴾. (٤)

فهذه الآية –كما يذكر السعدي – في تفسيره أنها: ﴿أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار، أجارنا الله منها ﴾. (٥)

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٤٢/٣٠ .

(٢) يُنظر: الكشاف: ٤٢/٣٠ .

(٣) إرشاد العقل السليم: ٩٢٠/٩ .

(٤) حاشية محيي الدين زادة على تفسير البيضاوي: ٦٠٨/٤ .

(٥) تيسير الكريم الرحمن: ٣٦٢/٥ .

الخاتمة

وبعد: فهاهي نهاية المطاف، وخاتمة البحث لهذا الإبحار الماتع، ولهذه الصحبة المباركة لآيات الذوق في القرآن الكريم، سعدتُ بصحبتها، والعيش في رحابها متأملا متدبرا لمقاماتها، ولما تضمنته من دقائق لغوية، وأسرار بلاغية، وكلي أمل أن تحقق هذه الدارسة غايتها، وأن تدرك مبتغاها، وثمة نتائج أمكن الاهتداء إليها من خلال هذه الدراسة، ومن أبرزها ما يأتي:

أولاً: تعددت مقامات لفظة الذوق في القرآن الكريم، بلغت أحد عشر مقاماً، وكما تعددت مقاماتها، فقد تنوعت –كذلك – صيغها، بناء على الغرض الذي سيقت له، والمقام الذي وردت فيه، كما تفاوت عدد ورود لفظة " الذوق" في هذه المقامات.

ثانياً: وردت لفظة "الذوق" في القرآن الكريم (٦٤) أربعة وستين مرة مقسمة على كل من العهد المكي، والعهد المدني، جاءت في (٢٧) سبع وعشرين صيغة متنوعة.

ثالثاً: وردت لفظة " الذوق" في العهدين: المكي، والمدني، وإن كانت الغلبة لورودها في العهد المكي، فكثر ورودها في هذا العهد على العهد المدني؛ بناء على اختلاف المخاطبين، واختصاص كل عهد منهما بخصائص موضوعية وأسلوبية تميزه عن الآخر، ولذا فورود لفظة (الذوق) في العهد المكي: تنوعا وعددا مرتبط بحال مَن خُوطبوا بها، وهم كفار قريش، فموقفهم من القرآن الكريم، وممن نزل عليه هذا القرآن سوغ معه مخاطبتهم بهذه الآيات التي تضمنت لفظة الذوق، بما فيها من قوة وجزالة، وسبك وإحكام.

رابعاً: أكثر المقامات التي وردت فيها لفظة " الذوق" هو: مقام الحديث عن عذاب الآخرة، فبلغت الآيات الواردة في هذا المقام ثلاثة وثلاثين آية، جلها في العهد المكي، والسرُّ في ذلك – والله أعلم – أن الفترة الزمنية التي قضاها النبي – صلى الله عليه وسلم– في مكة تزيد على الفترة الزمنية التي قضاها في المدنية، ونتج عن ذلك كثرة نزول الآيات في العهد المكي، والسبب الثاني – وهو الأهم –: أن القرآن الكريم في العهد المكي يخاطب كفار قريش، وهو منكرون للبعث كل الإنكار، جاحدون له، كفروا بالبعث والنشور، كما كفروا بالحساب والجزاء، ومن ثَم جاءت هذه الآيات تذكّرهم وتتوعدهم بالبعث والحساب، وأنهم مبعوثون ومحاسبون على أقوالهم وأفعالهم، وأنهم داخلون النار، ومعذبون فيها، ولن يجدوا مناصاً ولا مهربا من ذوق عذاب جهنم، ولهذين السببين كثر ورود لفظة (الذوق) في هذا المقام، في العهد المكي، بل يكاد يكون هذا الأمر سمة بارزة، وخاصية من الخصائص الموضوعية للآيات في العهد المكي.

خامساً: أكثر استخدم لفظة (الذوق) في لغة العرب في المعاني المجازية، فبذلك جرت بها ألسنة العرب الأقحاح شعراً ونثراً، وكذلك في القرآن الكريم، فجميع استعمال القرآن لهذه اللفظة في المعاني المجازية، ما عدا موضع واحد فقط، ولا عجب، فقد نزل بلسان عربي مبين، ولذا فاستخدام القرآن الكريم للفظة (الذوق) امتداد لاستخدام العرب لها، وقد تجلت بلاغة القرآن وإعجازه في توظيف هذه المعاني في تحقيق أغراض القرآن ومقاصده.

سادساً: تنوعت المقامات التي تأتي فيها لفظة " الذوق"، فتأتي في مقامات الشر والخير، وإن كان الأكثر وروداً لها في مقام الشر، وفي مقام العذاب في الدنيا والآخرة.

سابعاً: دلالة لفظة (الذوق) تختلف من مقام إلى مقام، والأغلب في دلالتها في الدنيا أنها تشير إلى معنى القلة، والنزر القليل، ومقدمة الأمور، وتضمحل هذه الدلالة وتتلاشى في الآخرة، فهي في مقام عذاب الآخرة تدل على الشدة، وعِظم الشيء، وشدة المقت.

ثامناً: صحب لفظةَ (الذوق) في النظم القرآن كثيرٌ من الأساليب البلاغية: كالحذف، والإيجاز بنوعيه، وأسلوب التأكيد بأدواته المتعددة، فضلا عما تضمنته من عبارات الوعيد والتهديد.

وغير ذلك من النتائج التي وردت في أثناء هذا البحث وتضاعيفه.

وفي ختام هذا البحث فإني أوصي بالإقبال على القرآن الكريم: دراسة وبحثاً، ونظراً وتأملاً؛ والدعوة إلى المزيد من الدراسات المتخصصة: تنظيراً وتطبيقاً؛ وذلك أن إعجاز القرآن الكريم لا تحيط به دراسة، ولا يحويه مؤلف، فلا يكشفه إلا تعاقب العلماء عليه، وتعدد الدراسات فيه وتنوعها؛ إذ لا تنقضي عجائبه، ولن ينفرد أحد ببيان إعجازه، فلا بد من تضافر الجهود، وحشد الطاقات، وشحذ الهمم والنفوس؛ للنظر في بلاغته وإعجازه.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات

مصادر البحث ومراجعه:

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د . ت) .

٢. أساس البلاغة، لجاء الله الزمخشري، دار ومطابع الشعب، القاهرة: ١٩٦٠م .

٣. الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، لابن المنير المالكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ .

٤. آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، للدكتور محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الأولى ١٤٣٠هـ .

٥. الإيضاح في علوم البلاغية، للخطيب القزويني، حققه وعلق عليه وفهرسه: الدكتور عبدالحميد هنداوي، مؤسسة المختار، للنشر والتوزيع، القاهرة، ط: الثالثة، ١٤٢٨هـ .

٦. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث(د . ت).

٧. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة: ط: الثانية، ١٤٠٨هـ .

٨. البيان والتبين، لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الخامسة: ١٤٠٥هـ .

٩. تأويل مشكل القرآن، لأبي عبيد بن مسلم بن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، دار التراث القاهرة، ط: الثانية: ١٣٩٣هـ .

١٠. تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسين دارسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ على محمد معوض، ود. زكريا عبدالمجيد النوني، ود. أحمد النحولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .

١١- تفسير القاضي البيضاوي، طُبع مع حاشية محيي الدين زادة، دار إحياء التراث العربي، بيروت. (د . ت).

١٢. تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد بن طاهر بن عاشور(د . ت).

١٣. تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .
١٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: محمد النجار، تصحيح : محمد البسام ، دار المدني؛ جدة، ١٤٠٨ هـ .
١٥. تفسير الجلالين، لجلال الدين أبي بكر السيوطي، دار الكتب العملية، بيروت(د . ت).
١٦. التفسير البسيط، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق مجموعة من الأساتذة، أشرف على طباعته وإخراجه: الدكتور عبدالعزيز بن سطام آل سعود، والأستاذ الدكتور تركي بن سهو العتيبي، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ
١٧. التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة.
١٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، بدار هجر.
١٩. حاشية زادة على تفسير البيضاوي، لمحي الدين شيخ زادة، دار إحياء التراث العربي بيروت (د . ت).
٢٠. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د. عبدالعظيم إبراهيم مطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .
٢١. دراسات جديدة في إعجاز القرآن: مناهج تطبيقية في توظيف اللغة، للدكتور عبدالعظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الأولى، ١٤١٧هـ .
٢٢. ديوان ابن مقبل: تميم بن أبيّ بن مقبل، عُني بتحقيقه: عزة حسن، دار الشرق العربي، حلب، ط: الثانية، ١٤١٦هـ .
٢٣. ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة عبدالحفيظ السطلي.
٢٤. ديوان الحطيئة، برواية وشرح ابن السكيت، تحقيق نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الأولى ١٤٠٧ هـ .
٢٥. ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانين حققه وشرحه صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر.
٢٦- صحيح سنن ابن ماجة، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط: الثانية، ١٤٠٨ هـ .

٢٧- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط: الأولى، ١٤١٩هـ .
٢٨. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ .
٢٩. علم البيان دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط:٢، : ١٤١٨هـ .
٣٠. علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني،د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط:١، : ١٤١٩هـ
٣١. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ .
٣٢. الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، لسليمان بن عمر العجيلي، الشهير بالجمل، ضبطه وصححه، وخرج آياته: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٦هـ .
٣٣.كتاب التعريفات، للشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٠٨هـ .
٣٤.كتاب الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة، ١٣٨٨هـ .
٣٥.كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، و على محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ط: الثانية.
٣٦. الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ .
٣٧. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، قابله على نسخه، ووضع فهارسه: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٢هـ .
٣٨. لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة: ١٤١٣هـ .

٣٩. متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام، للدكتور عبدالجواد محمد طبق، دار الأرقم للطباعة والنشر، الزقازيق، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .
٤٠. مجمع الأمثال، للميداني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ
٤١. محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العلمية.
٤٢. مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧ م .
٤٣. معالم التنزيل، للبغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك و مروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط:٢، ١٤٠٧هـ .
٤٤. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، ط: الثانية، ١٩٩٦م .
٤٥. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن بن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارونن دار الجيل، بيروت، ط: الأولى: ١٤١١هـ .
٤٦. مفتاح العلوم، لأبي يعقوب السكاكي، المكتبة العلمية الجديدة، بيروت.
٤٧. مقدمة العلامة ابن خلدون، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩١ م .
٤٨. مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين المكي والمدني، د. السيد عبدالمقصود جعفر، دار الطباعة والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى : ١٤١٣ هـ .
٤٩. مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربي، نشر أدب الحوزة، توزيع مكتبة الباز، طُبع ضمن شروح التلخيص.
٥٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ
٥١. المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدين التفتازاني، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٣٣٠هـ
٥٢. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ.
٥٣. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، ط: ٢ : ١٤١٣ هـ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٢
المبحث الأول: بين يدي آيات الذوق في القرآن الكريم	٣
المطلب الأول: تعريف الذوق لغة واصطلاحا.	٣
المطلب الثاني: آيات الذوق في القرآن الكريم. وصيغها.	٦
المبحث الثاني: مقامات لفظة الذوق في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية:	١١
توطئة: بيان المقام في الدرس البلاغي.	١١
المقام الأول: في قصة آدم عليه السلام مع الشيطان في الجنة.	١٦
المقام الثاني: ورود لفظة الذوق في مقام تحذير النبي ﷺ من اتباع المشركين.	٢٠
المقام الثالث: في بيان نعيم أهل الجنة.	٢٣
المقام الرابع: في مقام الرحمة في الدنيا.	٢٤
المقام الخامس: في مقام الموت وخروج الروح من الجسد.	٢٦
المقام السادس: في مقام الحديث عن الأمم السابقة.	٣٠
المقام السابع: في مقام الأحكام الشرعية وما يترتب عليها من كفارة.	٣٤
المقام الثامن: في مقام مخاطبة كفار قريش.	٣٦
المقام التاسع: في مقام العذاب في الدنيا.	٤٦
المقام العاشر: في بيان طبيعة الإنسان.	٥١
المقام الحادي عشر: في مقام الحديث عن عذاب الآخرة.	٦٥
الخاتمة	٧٩
مصادر البحث ومراجعه	٨١
فهرس الموضوعات	٨٥